إيميه سيزير

خطاب عن الاستعمار

ترجمة: عبدالجبار خمسه

بمشاركة رواند نكد

دار الفارابي

DISCOURS SUR LE COLONIALISM

Aimé Césaire

Discours sur le colonialisme,
1955, Présence Africaine, Paris

الكتاب: خطاب عن الاستعمار
المؤلف: إيميه سيزير
ترجمة: عبد الجبار خمسه بمشاركة رواند نكد
الرسوم الداخلية والغلاف: محمد يكتا

الناشر: دار الفارابي - بيروت - لبنان
ت: 301461(01) - فاكس: 307775(01)
ص.ب: 11/3181 - الرمز البريدي: 2130 1107
www.dar-alfarabi.com
e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: أيار 2013
ISBN: 978-9953-71-871-2

ملاحظة أولى

حاول إيميه سيزير أن يفكك الاستعمار، وبما أنّ ذلك لم يتم كلياً إلى الآن، فإنه استطاع أن يفكك جزءاً منه كان موجوداً فينا كأشخاص مستعمَرين.

فهذا العمل يجمع ثلاثة أشخاص، يجمعهم الاستعمار بمختلف أشكاله وأطيافه البيضاء حيث لم يستطع تطويقهم، وحيث قضوا معظم وقت هذا العمل في رحاب مبنى غزة وفي رحاب حيويته الدائمة، بشقاوة أطفال المبنى ونشاطهم، بوجودهم شبه الدائم والذي لا يتشتّت، وبالقهوة المتوافرة.

إن الذين داوموا على العمل في ترجمة هذا النص، من طبعته الإنكليزية(*) هم: شخص يعرف الإنكليزية ولا

(*) *Discourse on Colonialism* (2000), trans. Joan Pinkham, Monthly Review press, New York.

يجيدها (صاحب هـذه الأسطر مع غرابة الأمر)، امرأة تجيد الإنكليزية وتعرف العربية لكن لا تكتبها (رواند نكد)، ورجل يجيد الإنكليزية ويعرف العربية ولكن لا يكتبها أيضاً (ابن سائق الشاحنة). وبالرغم من معرفتنا بالمثل القائل «كثرة الطبّاخين...» قررنا أن نخوض هذه التجربة بالتعاون والنقاش الدائمين في ما بيننا عوضاً عن الأخذ بالمثل المذكور. فعمل سيزير يتطلّب مجهود بحثي إذ ان نصه يتوزّع على قارات العالم. الأمر الذي جعل العمل أقرب إلى المتعة عبر إعادة تكوين معرفتنا من جديد، وكما أنه غير شكل علاقتنا فيما بيننا، فلم يكن التفاهم فيما بيننا هو الذي دفعنا إلى هذا العمل بقدر ما كان التفاهم هو نتيجة لهذا العمل، فانعكس ذلك على لغتنا (العربية والإنكليزية). وبما أنّ النص الأصلي مكتوب باللغة الفرنسية، فكان علينا دائماً أن نستعين بالأخت العزيزة بنسيم جلال والأخ فادي يمّين لمعرفتهما باللغة الفرنسية واللذان نشكرهما.

ومن دون أية إطالة، فإنّ أسباب ترجمة هذا الكتاب هي:

- محاولة للإسهام في تفكيك العنصرية بشكلها العربي وبالأخص تلك التي يواجهونها السود يومياً.
- وجود «ثقافة 'نصف بيضاء'... ثقافة متعالية على غير البيض وتحمل مشاعر النقص أمام الأبيض».
- ولأن «العرب كانوا مستعمَرين (بفتح الميم)، وناضلوا ضد الاستعمار، وطـوّروا في مرحلة من المراحل علاقة تضامن مع الشعوب الأخرى الواقعة تحت الاستعمار، في آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية، وهذا يؤسس لتراث تحرري(*)».

«...الطغاة القدامى، بشكل عام، يتفقون جيداً مع الجدد، وأنّه قد نشأت بينهم، على حساب الشعب، حلقة للخدمات المتبادلة والتواطؤ(**)».

عبد الجبار

(*) عزمي بشارة، 2003، طروحات عن النهضة المعاقة، دار رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، من مقالة حول أهمية المكانة ومكانة الأهمية، ص 148.
(**) إيميه سيزير، من هذه الطبعة للكتاب، ص41.

كل الشكر والتقدير

كل الامتنان للذين ساهموا في هذا العمل بنصائحهم ومحبتهم ودعمهم:

شاهد عيان، أسعد سمّور، محاسن المصري، عبد الرحمن جاسم، علاء العلي، راجي عبد السلام، الأخ الرفيق فقيري، أسامة يوسف، صفية درويش، حسين الديماسي، طارق العلي، لورا ساسين، روز ساسين، نقولا حنّا، طوني يونان، نيما يكتاباراست، خلدون حجاج، نور دادوس، برناديت نكد، فيليب نكد، وكتيبه 5.

ملاحظة ثانية

تنزلق قطرة من مطر الشتاء من على الرقبة نزولاً الى العمود الفقري إلى حيث تنتظر المناشير يدك لتصل.

لا ترمها الآن...

عيناه تطوفان حول طاقم اللحى والقمصان المزرّرة الذي يسير قدماً. يسحب كتاب الصف الثامن الأدبي، يلجأ الكتاب إلى خيمةٍ من يديه المبللتين وأنفاسه المرتعشة وصدره:

...أتكلّم عن مجتمعاتٍ استنزفت من جوهرها (اللحى تحدق داخل الكتاب)، ثقافات مُرّغَت تحت الأقدام (القمصان المزرّرة تزن الحقيبة)، مؤسساتٍ

ملغّمة (المسبحة تفتش الجيَب)، أراضٍ صودرت (المسدس يرصد الكلمات)، دياناتٍ سحقت (العقائدية تداعب الزناد)، إبداعات فنية مذهلة دمرت (أحذية الجيش تبتسم بتكلّف)...

لا تصوِّب عينيك على الجزمات الملمّعة، وإنما على صورتها المتموِّجة. مطر الشتاء المنهمر يجرفها بعيداً، وينتشلها من البقعة.

علينا أن نغادر قبل أن يعودوا ثانيةً...

قطرة تتدلى من على السقف بثقل، بخجل، في مباني مشفى غزة في صبرا/ بيروت. أسمع العاصفة. يتكلمون معي عن التطور، عن «إنـجـازات»، شفاء الأمــراض، مستويات العيش المحسنة... القطرة تسقط أخيراً على بياض الصفحة، بقعة تنتشر مع سواد الكلمات. هذه المرّة الكلمات المتسربة، العائمة بتدفق، هي بالإنكليزية، وقد ترجمت إلى العرب

لقد مرّ أكثر من عقدين. الجسد المعذّب، للذي قرأ سيزير في ذلك اليوم، مدفون في لعنت آباد (ساحة اللعنة) في مقبرة شيراز. والآن تبقى الذاكرة كالحدث كما هي القطرة. كلية الوجود.

ابن سائق الشاحنة

خطاب عن الاستعمار

إنّ الحضارة التي تُثبت عجزها عن حل المشاكل التي تخلق، هي حضارة منحطّة.

إنّ الحضارة التي تختار أن تغمض عينيها تجاه معظم مشاكلها المصيرية، هي حضارة مُتصدِّعة.

إنَّ الحضارة التي تستخدم مبادئها من أجل الخداع والمكر، هي حضارة مُحتضرة.

وفي الواقع إنّ ما يسمى بالحضارة الأوروبية - الحضارة «الغربيّة» - كما تم تشكيلها عبر قرنين من الحكم البرجوازي، هي عاجزة عن حل مسألتين أساسيتين على وجودها، واللتين قد تمّت إثارتهما: مسألة البروليتاريا، والمسألة الاستعمارية؛ الى حد أنّ أوروبا غير قادرة على تبرير نفسها إن كان ذلك أمام معيار

«العقل» أو أمام معيار «الضمير»؛ وأنها تلجأ إلى النفا
بشكل تصاعدي مما يزيد من البغيضة لأنها أقل وأ
قدرة على الخداع.

لا يمكن الدفاع عن أوروبا.

على ما يبدو، هذا ما يهمس به الاستراتيجيون الأمريكيون لبعضهم بعضاً.

هذا ليس مهماً بحد ذاته.

المهم هو أن «أوروبا» أخلاقياً، وروحياً غير مبرَّرة. واليوم التهمة قد وُجهت ضدها ليس من قبل الكُتل الأوروبية فقط، بل على نطاق العالم، من قبل عشرات وعشرات الملايين من الرجال الذين، من عمق العبودية، عيّنوا أنفسهم قضاة.

قد يَقتل المستعمِر في الهند الصينية، يُعذّب في مدغشقر، يسجن في أفريقيا السوداء، يَقمع في جزر الهند الغربية. لكن من الآن فصاعداً يعي المستعمَرون أنهم يتقدمون عليه.

إنهم يعلمون أن «أسيادهم» المؤقتين يكذبون، ولذلك أسيادهم ضعفاء.

وبما أنّه قد طُلِبَ مني أن أتكلم عن الاستعمار والحضارة، فلنتجه مباشرةً إلى الكذبة الأساسية والتي تُشكِّل المصدر لما تبقى.

الاستعمار والحضارة؟

في معالجة هذا الموضوع، فإنَّ اللعنة الأكثر شيوعاً هي أن تكون المغفّل بحسن نيّة النفاق الجماعي الذي يُشَوِّه المشاكل بذكاء، ومن الأفضل شرعنة حلول الحقد المعروضة أمامها.

وبعبارة أخـرى، الأمـر الأساسي هنا أن نرى بوضوح، أن نفكر بوضوح - وأن ننصت بحذر - أن نُجيب بشكل واضح على السؤال الأول البريء: ما هو، جوهرياً، الاستعمار؟ لنتفق على ما ليس هو عليه: ليس التبشير، كما أنه ليس مشروعاً إحسانياً، وليس الرغبة في إبعاد حدود الجهل، المرض، والطغيان، وليس مشروعاً ملتزماً بنشر عظمة الله العظيم، وليس محاولة لبسط سيادة القانون. لنعترف مرّة وإلى الأبد، دون إغفال العواقب، أن الحركة الفاعلة الحاسمة هنا هي حركة

تضم حركة المغامر والقرصان، بائع البقالة بالجملة ومالك السفينة، ومنقِّب الذهب والتاجر، الشهية والقوة، وخلفهم، الطيف المُسقَط المُهلك لشكل من الحضارة التي، تجد نفسها مرغمة، أثناء مرحلة معينة من تاريخها، لأسبابٍ داخليّة، على توسيع منافسة اقتصادياتها العدائية على نطاقٍ عالمي.

وفي متابعة دراستي التحليلية، وجدت أن النفاق هو من التاريخ الحديث؛ فلا كورتيز (Cortéz) باكتشافه المكسيك من قمة الهرم العظيم تيوكالي (teocalli)، ولا بيزارو (Pizzaro) في مواجهة كوزكو (Cuzco) (أقل بكثير من ماركو بولو Marco Polo في مواجهة كامبولوك Cambuluc)، ادّعى أنه المبشِّر لنظام الفوقيّة؛ فهم كانوا يقتلون، ينهبون، يملكون الخوذ والرماح، والأطماع؛ على أنّ مبرّرو الاستعباد أتوا لاحقاً؛ وأنّ المذنب الرئيسي في هذا المجال هو التحذلُق المسيحي، والذي أرسى المعادلات الكاذبة المسيحية= الحضارة، الوثنية= الوحشية، من حيث لا ينتج إلا استعماراً كريهاً

وعواقب عنصريّة، والذين سيكونون الضحايا هم الهنود، الشعوب الصفراء، والزنوج[1].

هذا تم حسمه، أُقر بأنه من الأمر الجيِّد أن نضع مختلف الحضارات في اتصال مع بعضها بعضاً؛ هذا أمر ممتاز لمزج مختلف العوالم؛ ومهما تكن عبقريتها الخاصة، فالحضارة التي تنطوي على نفسها تضمر، وهذا من أجل الحضارات، فالتبادل هو الهواء؛ إنّ من حُسن حظّها العظيم لأوروبا أنها كانت على مفترق الطرق، ولهذا كانت موضِع جميع الأفكار، وعاء لجميع الفلسفات، مكان التقاء الآراء، لقد كانت المركز الأفضل لإعادة توزيع الطاقة.

لكن بعد ذلك أسأل السؤال التالي: هل فعلاً وَضَعَ

(1) لقد استخدمنا كلمة الزنوج للدلالة على كلمة negroes. فأثناء تلك الحقبة استخدمت كلمة negro من قبل العديد من الأفارقة. و من ثم لاحقاً تم رفض الكلمة من قبل حركات القوة السوداء الرادكالية، كالتي وُجدت في أميركا الشمالية، بما أنها كلمة أوروبية غير منفصلة عن الاستعمار والعبودية (المترجم).

الاستعمار الحضارات على اتصال؟ أو، إذا كنتَ تفضل، بين جميع الطرق لإقامة الاتصال، هل كان الاستعمار هو الطريق الأفضل؟

أجيب بلا.

وأوكد أنّ بين الحضارة والاستعمار مسافة لا نهائية؛ إنها خارج جميع الحملات الاستعمارية التي تم التعهد بها، خارج جميع القوانين التي تم ترتيبها، خارج جميع المذكرات التي تم إيفادها عبر جميع الدورات الوزارية حيث لا يمكن أن تأتي قيمة إنسانية واحدة.

أولاً يجب علينا أن نبحث كيف يعمل الاستعمار لتجريد المستعمِر من المدنية[2]، ليتوحّش عليه بالمعنى الحقيقي للكلمة، لتحقيره، لإثارته باتجاه الغرائز المدفونة، باتجاه الجشع، العنف، الكراهية العرقية، والنسبيّة الأخلاقيّة؛ ويجب أن نُظهِر أنّ، في كل مرّة يُقطَع الرأس أو تُقلَع العين في فيتنام ويرضون عن ذلك في فرنسا، في كل مرّة تُغتصب فتاة صغيرة ويرضون عن ذلك في فرنسا، في كل مرّة يُعذَّب مدغشقري ويرضون عن ذلك في فرنسا، تكتسب الحضارة وزناً إضافياً مميتاً، يحدث انحدار كوني، تنشأ الغرغرينا، ويبدأ مركز

(2) كانت العبارة الأصلية في النص *'déciviliser'* و *'decivilize'* في الإنكليزية وقد تم ترجمتها بهذه الطريقة (المترجم).

الإصابة بالانتشار؛ ففي نهاية كل هذه المعاهدات التي تم انتهاكها، كل هذه الأكاذيب التي تم نشرها، كل هذه الحملات التأديبية التي تم التغاضي عنها، كل هؤلاء السجناء الذين تم تقييدهم و«استجوابهم»، كل هؤلاء الوطنيين الذين تم تعذيبهم، وفي نهاية كل هذه الغطرسة العنصريّة التي تم تشجيعها، كل هذا التبجح الذي تم إظهاره، سمٌّ قد قُطِّرَ داخل شرايين أوروبا؛ فتمضي القارة قدماً باتجاه الوحشية، ببطء لكن بثبات.

لكن في يومٍ صافٍ، أُيقظت البرجوازية بالصدمة المروّعة المرتدّة: الغستابو مشغولون، تُملأ السجون، يقف المعذِبون حول أدواتهم، يخترعون، ينقّحون، يتناقشون.

الناس مدهوشون، ساخطون. قد يقال: «كم هذا غريب! لا تقلق ـ إنها النازية وستعبر!» قد ننتظر، وقد نأمل، وقد نخفي الحقيقة عن أنفسنا، إنها الهمجية، ولكنها الهمجية العُليا، التي تتوِّج، وتلخّص كل الرتابة الهمجية اليومية؛ إنّها لنازية، أجل، ولكن قبل أن نصبح

ضحاياها، كنا شركاءها: إنّ النازية هذه، قد دعمناها قبل أن تسقط علينا، لقد أغمضنا أعيننا من فوق، شَرَّعناها، لأنها، حتى آنـذاك، لم تطبّق إلا على الشعوب غير الأُوروبية؛ إنّ النازية هذه، هي التي احتضناها وكنا المسؤولين عنها، والتي تُصِم، وتخرق، وتتسرب، قبل أن تبتلع بمياها المحمِّرة، كل فجوات هذه الحضارة الغربية، المسيحية.

أجل، قد يكون من المجدي أن نَدرُس سريرياً، بالتفصيل، الخطوات التي اتخذها هتلر والهتلرية لنظهر للمتميِّز جداً، الإنساني جداً، البرجوازي المسيحي جداً للقرن العشرين دون أن يكون له علِم بذلك، أن لديه هتلراً بداخله، أن هتلراً يسكنه، أن هتلراً هو شيطانه، وإن أدانه، فهو يكون متناقضاً. وذلك، في الأساس، ما لا يستطيع مسامحة هتلر عليه هو ليس الجريمة بحد ذاتها، الجريمة بحق الإنسان، ليس إذلال الإنسان بحد ذاتـه، إنما الجريمة بحق الإنسان الأبيض، إذلال الإنسان الأبيض، وحقيقة أنه طبَّقَ على أوروبا الاستعمارية الإجراءات التي

كانت إلى ذلك الحين محفوظة حصرياً لعرب الجزائر، «كوليي» الهند (coolies)، و«عبيد» أفريقيا (niggers)[3].

وهذا هو الشيء العظيم الذي أحقد عليه ضد شبه الإنسانية: إنّها ولفترة طويلة قد قلّصت حقوق الإنسان، على أن مفهومها لهذه الحقوق كان - ولا يزال - ضيقاً مُقطّعاً، ناقصاً ومنحازاً، وكل الأشياء المعتبرة فيها، عنصرية قذرة.

لقد تكلمتُ كثيراً عن هتلر. لأنه يستحق ذلك: إنه يجعل من الممكن أن نرى الأشياء على نطاقٍ أوسع، وأن ندرك أنّ واقع المجتمع الرأسمالي، في المرحلة الحاليّة، هو غير قادر على إنشاء مفهوم للحقوق لجميع البشر، كما أثبت عجزه عن تأسيس نظام للأخلاق الفردية. سواء أحب المرء ذلك أم لم يحب، في نهاية الطريق المسدود

(3) 'coolie' أي الحمّال، وهي عبارة تحقير أطلقها الإنكليز على الهنود. أما بالنسبة لـ «العبيد» فهي تعبير عربي يستخدم للدلالة على السود واستخدمناه كمعادل لكلمة 'niggers' وهي كلمة تستخدم للتحقير من الزنوج (negroes) (المترجم).

الذي هو أوروبا، أقصد أوروبا أديناور (Adenauer)، شومان (Schuman)، بيدو (Bidault)، وعدداً قليلاً آخر، يوجد هناك هتلر. في نهاية الرأسمالية، التوّاقة لأن تنجو بيومها، يوجد هناك هتلر. في نهاية الإنسانية الرسمية والنبذ الفلسفي، يوجد هناك هتلر.

وبناءً على ذلك، لا يسعني التفكير بتصريحٍ واحد من تصريحاته: «نحن لا نطمح للمساواة بل للسيطرة. بلاد العرق الأجنبي يجب أن تعود مرّة أخرى بلاد الأقنان، العمال الزراعيين، أو العمال الصناعيين. إنها ليست مسألة إلغاء اللامساواة بين البشر بل توسيعها وقوننتها».

هذه الحلقات واضحة، الغطرسة، والوحشية، وغرسنا تماماً بوسط وحشية نابحة. لكن دعنا ننزل درجة.

من الذي يتكلّم؟ إنني أخجل أن أقول إنه: الإنساني الغربي، الفيلسوف «المثالي». على أن اسمه رينان (Renan) هو مصادفة. إن النص المأخوذ من

الكتاب المعنوَّن بـ الإصلاح الفكري والأخلاقي (*La Réforme intellectuelle et morale*)، الذي كُتب في فرنسا مباشرةً بعد حربٍ قد مثلتها فرنسا على أنها حرب الحق ضد البأس، يقول لنا الكثير عن الأخلاقيات البرجوازية.

إن إحياء الأدنى أو الأعراق المنحطة من قِبل الأعراق الأسمى هو جزء من المشيئة الإلهية للأشياء من أجل الإنسانية. عندنا، الرجل العادي تقريباً دوماً هو النبيل الفاقد لنبالته، يده الثقيلة هي ملائمة أكثر لنقل السيف من أدات الخدم. بدلاً من العمل، يختار القتال، والذي، يعود إلى حالته الأولية. أن نحكم الشعوب (*Regere imperio populos*)[4]، هذا هو نداؤنا. اسكب عليها كل هذا النشاط على البلدان المستهلِكة التي، تصرخ عالياً للاحتلال الأجنبي، مثل الصين. حوِّل المغامرين الذين يعكرون المجتمع الأوروبي إلى

(4) تعبير لاتيني (المترجم).

نبع مقدس (*ver sacrum*)، إلى حشد مثل هؤلاء الإفرنج (Franks)، اللومبارديين (Lombards)، أو النورمان (Normans)، وكل شخص سيكون في دوره الصحيح. الطبيعة قد صنعت عِرق للعمال، العرق الصيني، الذي لديه مهارة يدوية رائعة وتقريباً بلا عزّة نفس؛ إحكمه بعدالة، مُجباة منه، وستحصل في المقابل على التمجيد لهكذا حكم، وإعانة وافرة للعرق الغازي، وهذا يكفيه؛ عرق حُرات التربة، الزنوج؛ عامله بلطف وإنسانيّة، وكل شيء سيكون كما يجب؛ عِرق للأسياد والجنود، العِرق الأوروبي. اختزل هذا العرق النبيل بالعمل في الإرغاستولوم (*ergastulum*)[5] مثل الزنوج والصينيين، وسوف يتمردون. في أوروبا، كل متمرد هو، تقريباً، جندي أخطأ نداءه، مخلوق خُلق للحياة

(5) إصلاحية رومانية، تكون تحت الأرض عادة، وهي من ملكية أسياد «العبيد»، إذ كانت تستخدم لمعاقبة «العبيد» بتركهم في هذا المكان، ليعملوا وهم مكبّلين بالسلاسل (المترجم).

البطولية، أنت تضع أمامه مهمة تتعارض مع عرقه، عامل بائس، مقابل جندي جيِّد جداً. لكن الحياة التي يتمرَّد عُمّالنا عليها من شأنها أن تجعل الصيني أو الفلّاح سعيداً، طالما أنهم ليسوا مخلوقات حربية على الأقل. دع كل فرد يعمل ما خُلق من أجله، والجميع سيكون بخير.

هتلر؟ روزنبرغ (Rosenberg)؟ لا، رينان.

لكن دعنا ننزل درجة أبعد. وهذا هو السياسي المستفيض. من يحتج؟ لا أحد، بقدر ما أعرف، عندما يُعلِّم السيّد ألبير سارو (Albert Sarraut)، الحاكم العام السابق للهند الصينيّة، محاضراً الطلاب في المدرسة الكولونياليّة (Ecole Coloniale)، أنه من الصبيانية الاعتراض على المشاريع الاستعمارية الأوروبية باسم «الحق المزعوم بامتلاك الأرض التي يحتلها المرء، ونوعاً من الحق بالبقاء في عزلة ضارية، والتي ستسمح للموارد غير المستغلّة أن تستلقي للأبد خاملةً في أيدي العاجزين».

ومن الذي يثير السخط عندما يؤكِّد لنا القس بارد (Barde) المُتيقن من أنَّ خيرات هذا العالم إذا «بقيَّت مُقسَّمة إلى أجل غير مُسمّى، كما ستكون بلا استعمار، فانها لن تلبّي مشيئة الإله ولا المطالب العادلة للتعاضد الإنساني»؟

منذ أن أعلن، كما أخوه المسيحي، القس مولر (Muller): «لا يجب على الإنسانية، لا تستطيع أن تسمح بعدم كفاءة، وإهمال، وكسل الشعوب غير المتحضِّرة للمضي مُعطِلةً إلى أجلٍ غير محدد الثروة التي أعهدها الله لهم، مكلِّفاً إياهم بجعلها تخدم الخير للجميع».

لا أحد.

أقصد ليس أي كاتب معروف، ولا أي أكاديمي، ولا أي واعظ، ولا أي محارب للحق وللدين، ولا أي «مُدافع عن الإنسان».

وحتى الآن، من خلال أفواه الساروويين والبارديين، المولريين والرينانيين، ومن خلال أفواه كل الذين اعتبروا – ويعتبرون – أنه من القانوني أن يطبِّق

على الشعوب غير الأوروبية « نوع من مصادرة المُلكية لأهدافٍ عامة» لمصلحة الأمم التي كانت أقوى وأفضل تسليحاً، لقد كان بالفعل هتلر الذي يتكلّم!

ما الذي أُشير إليه؟ في هذه الفكرة: أن لا أحد يستعمِر ببراءة، أن لا أحد يستعمِر بحصانة أيضاً؛ أن الأمة التي تستعمِر، أنّ الحضارة التي تُبرِّر الاستعمار- وبالتالي القوة - إنها مسبقاً حضارة مريضة، حضارة مصابة أخلاقياً، وبشكل مُغرٍ، تتقدَّم من عاقبة إلى أخرى، من نكران إلى آخر، تنادي هتلرها، أقصد عقابها.

الاستعمار: هو رأس الجسر ضمن حملة الحضارة الهمجية، بحيثُ قد يظهر في أي لحظة النفي للحضارة، واضح وبسيط.

بمكانٍ آخر، ذكرتُ بإسهاب حوادث قليلة اقتُطِفت من تاريخ الحملات الاستعمارية.

للأسف، هذا لم يلقَ التأييد عند الجميع. يبدو أنني كنتُ أسحب الهياكل العظمية القديمة من الخزانة. بالفعل!

هل لم يكن هناك هدف من اقتباس كولونيل دي مونتاناك (Montagnac)، أحد محتلّي الجزائر: «من أجل إبعاد الأفكار التي تحاصرني أحياناً، يجب عليّ قطع بعض الرؤوس، ليس رؤوس الأرضي شوكي إنما رؤوس البشر».

ألم يكن من المستحسن أن أرفض منح الكونت ديريسون (d'Hérrisson) منبراً: «صحيحٌ أننا نُرجع برميلاً كاملاً من الآذان المجموعة، زوجاً زوجاً، من السجناء، صديقاً أو عدواً».

أكان عليَّ أن أنكر حق سانت أرنو (Saint-Arnauld) بالمجاهرة بإيمانه الهمجي: « نُهدِّم، نحرق، نسلب، ندمر المنازل والأشجار».

أكان عليّ منع المارشال بووجو (Bugeaud) من منهجة كل هذا في نظرية جريئة، والتذرع بالأسلاف السابقين المعروفين: «يجب أن يكون هناك غزو كبير لأفريقيا، مثل غزوات الإفرنج والقوطيين».

أخيراً، أكان عليّ أن أقذف إلى ظلال النسيان العمل الفذ المسلح المشهود للجنرال جيرار (Gérard) وأصمت عن اعتقال آمبيكي (Ambike)، وهي المدينة التي، لأقول الحقيقة، لم يسبق لها أن حلمت بالدفاع عن نفسها: «وحدات المشاة، كان عندهم أوامر بأن يقتلوا الرجال فقط، إلا أنّ أحداً لم يكبحهم؛ مخمورين برائحة الدم، لم يدخروا امراة واحدة، ولا طفلاً واحداً... في نهاية الظهيرة، تسببت الحرارة بضبابٍ خفيف لتظهر: دماء الخمسة آلاف ضحية، شبح المدينة، يتبخّر عند غروب الشمس».

نعم أو لا، هل هذه الأمور صحيحة؟ والمتع السادية، اللذات غير المسماة التي ترسل الرعشات والارتجافات الشهوانية من خلال جثة لوتي (Loti) عندما يركز منظاره الميداني على المجزرة العظيمة للأناميين (Annamese)[6]؟ أصحيح أم لا؟ وإن كانت

(6) هذا مرجع لقصة القبض على ثوان آن (Thuan-An) والتي نشرت في لو فيغارو *(Le Figaro)* في أيلول/ سبتمبر 1883 وهي مقتبسة من كتاب ن. سربان (N. Serban)، لوتي،

هذه الأمور صحيحة، بما أنّ أحداً لا يستطيع الإنكار، هل ستُقَر، بهدف تصغيرها، أي أنّ هذه الجثث لا تُثبت شيئاً؟

من جهتي، إذا استرجعت القليل من الأدلة لهذه المسالخ القبيحة، فذلك ليس لأني أجد فيها لَذة مَرضيّة، إنّما أعتقد أنّ رؤوس هؤلاء البشر، هذه التشكيلات من الآذان، هذه المنازل المحروقة، هذه الغزوات القوطية، هذه الدماء المتبخرة، هذه المدن التي تتبخر على حد السيف، ليست لتكون منبوذة بهذه السهولة. إنهم يَثبتون أنّ الاستعمار، أكرر، يعرّي الإنسان الأكثر تحضُّراً من إنسانيته؛ أنّ النشاط الاستعماري، المشروع

حياته، وأعماله *(Loti, sa vie, son oeuvre)*. «ومن ثمّ بدأت المذبحة العظيمة. لقد أطلقوا رشقات مزدوجة! وكان ممتعاً أن نرى تللك الرشقات من الرصاص، حيث كانوا أمام مرمى أعيننا، تنهال عليهم مرتين كل دقيقة، بثقة وانضباط، حسب التعليمات... رأينا بعض الذين جُنوا تماماً ووقفوا مأسورين برغبة مشوشة بالهرب... انطلقوا بخط متعرِّج، يهربون في جميع الاتجاهات في هذا السباق مع الموت، حاملين ملابسهم حول خصورهم بطريقة مضحكة... ومن ثمّ أمتعنا أنفسنا بعد الأموات، إلخ».

الاستعماري، الإخضاع الاستعماري، والذي يستند إلى التحقير من الأصلاني والمعلّل بذلك التحقير، يميل حتماً لتغيير الذي يباشر بذلك؛ أنّ المستعمِر، من أجل أن يريح ضميره يعتاد على رؤية الإنسان الآخر على أنه حيوان، يؤلف نفسه على معاملته كالحيوان، ويتجه موضوعياً إلى تحويل نفسه إلى حيوان. هذا الفعل، هذه الصدمة المرتدّة، للاستعمار التي من المهم الإشارة إليها.

غير منصف؟ كلا. كان هناك وقت عندما كانت هذه الوقائع ذاتها مصدراً للاعتزاز، عندما، تأكدوا من غدِهم، لم يتلاعب الناس بالكلام. مقتبس واحد، أخير؛ للمتيقن كارل سيجر (Carl Siger)، كاتب مقالة عن الاستعمار (باريس، 1907):

> تقدم البلدان الجديدة ميداناً واسعاً، للأنشطة الفردية والعنفية التي، تصطدم ببعض القناعات

> في البلدان المركزية، تجاه تصور منظم وعاقل للحياة، والتي، في المستعمرات، تستطيع أن تنمو بحرية أكثر،وبثباتٍ أعمق وبالتالي، تؤكد قيمتها. وهكذا، إلى حدٍ مُعيَّن، يمكن أن تخدم المستعمرات كصمّام أمان للمجتمع الحديث. حتى ولو كان هذا قيمتها الوحيدة، سيكون ذلك عظيماً.

حقاً، هناك خطايا لا أحد يملك القوة لتصحيحها والتي لا يمكن أبداً ان تُكفَّر بشكلٍ كامل.

لكن دعنا نتكلم عن المستعمَر.

أرى بوضوح ما الذي دمَّره الاستعمار: الحضارات الهندية الرائعة – لا ديتردينغ (Deterding) ولا الرويال دوتش (Royal Dutch) ولا ستاندرد أويل (Standard Oil) سوف تُعَزِّيني على الإطلاق عوضاً عن الأزيتك (Aztecs) والإنكا (Incas).

أرى الحضارات، التي حُكمت بالفناء في موعدٍ لاحق بوضوح، بحيث قُدمت كقاعدة للخراب: جزر

بحر الجنوب(7)، نيجريا، نياسلاند [ملاوي الآن](8). أرى بوضوح أقل الإسهامات التي قدمتها.

الأمن؟ الثقافة؟ سيادة القانون؟ في هذه الأثناء، أنظر حولي وأينما يوجد مستعمِرون ومستعمَر وجهاً لوجه، أرى قهراً، وحشية، قسوة، سادية، صراعاً، و، في مشهد ساخرٍ للتعليم، أرى الصناعة الطائشة لبضعة آلآف

---

(7) جزر وسط وجنوب غرب المحيط الهادئ منها: تونغا، ساموا، فيجي، هاواي، ببوا غينيا الجديدة، سُلُمُن... تم استعمار هذه الجزر وغيرها من قبل مختلف البلدان الأوروبية، بما فيها فرنسا، إنكلترا، ألمانيا، ولاحقاً أضافت الولايات المتحدة الأميركية هاواي كولاية من ولاياتها. لقد استعان المستعمِر بالإرساليات المسيحية لتحويل السكان الأصلانيين. وقد تم ذلك، إذ إن المنطقة الآن مسيحية. وقد حوِّلت جزر عديدة إلى منتجعاتٍ سياحية حيث لا يسمح للسكان الأصلانيين بالدخول، كما حوِّلت إلى أماكن للتجارب النووية (فرنسا على سبيل المثال)، كما تم استعباد السكان الأصلانيين مرة أخرى ليعملوا باستخراج المعادن والمناجم... (المترجم).

(8) إضافة المترجم.

من الموظفين التابعين، «الفتيان»(9)، الحرفيين، كتبة المكاتب، مترجمين فوريين ضروريين من أجل سلاسة الأعمال التجارية.

تكلّمتُ عن الاحتكاك.

بين المستعمِر والمستعمَر هناك مساحة، فقط، لعمال مقهورين، تهويل، ضغط، الشرطة، ضرائب، سرقة، اغتصاب، المحاصيل القسرية، ازدراء، ارتياب، عنجهية، الرضا الذاتي، الوقاحة، نخبة بلهاء، جماهير منحطّة.

ليس احتكاك بشري، بل علاقات الهيمنة والخنوع التي تحول الإنسان المستعمِر إلى مراقب الصف، رقيب الجيش، حارس السجن، قائد العبد، والمواطن الأصلاني إلى آلة للإنتاج.

حان دوري لأصرِّح بالمعادلة: الاستعمار = «التشيّؤ».

---

(9) اعتاد البيض على مناداة الأسود بـ«الفتى» (boy) لتحقيره، «إذ إنه لا يكبر أبداً» (المترجم).

أسمع العاصفة. ويتكلمون معي عن التطور، عن «إنجازات»، شفاء الأمراض، مستويات العيش المحسَّنة.

أنا أتكلّم عن مجتمعات استُنزِفت من جوهرها، ثقافات مُرِّغَت تحت الأقدام، مؤسساتٍ مُلغمة، أراضٍ صودِرَت، دياناتٍ سُحِقت، إبداعات فنية مذهلة دمِّرت، إمكانيات استثنائية مُسِحَت.

إنهم يقذفون بالحقائق على رأسي، إحصاءات، مسافات من الطرقات، أنفاق وخطوط سكك الحديد.

أنا أتكلّم عن آلاف الرجال الذين تمّت التضحية بهم من أجل شط الكونغو (Congo-Océan)[10]. أنا أتكلّم عن أولئك الذين، وأنا أكتب هذا، يحفرون بالأيدي مرفأ أبيدجان. أنا أتكلّم عن ملايين من الرجال سُلخوا عن آلهتهم، أرضهم، عاداتهم، حياتهم - من الحياة، من الرقص، من الحكمة.

أنا أتكلّم عن ملايين من الرجال الذين غُرِس بهم

---

(10) سكة حديد تصل برازفيل (Brazzaville) بمرفأ بونت نوار (Pointe-Noire) (المترجم إلى اللغة الإنكليزية).

الخوف بمكر، الذين لقِّنوا لتكون عندهم عقدة الدونية، لكي يرتجفوا، يركعوا، يقنطوا، وليتصرفوا مثل الخدم.

إنهم يبهرونني بحمولة القطن أو الكاكاو التي تم تصديرها، الفدّانات التي تم زرعها بأشجار الزيتون أو الكرمة.

أنا أتكلّم عن اقتصاديات طبيعية تم تعطيلها - اقتصاديات متناغمة وقابلة للحياة متأقلمة مع السكان الأصلانيين - عن المحاصيل الغذائية التي تم تدميرها، سوء التغذية الدائمة الدخيلة، نمو زراعي موجه فقط نحو نفع الدول المركزية؛ عن نهب للسلع، النهب للمواد الخامة.

إنهم يعتزّون بالقضاء على الانتهاكات.

أنا أتكلّم عن الانتهاكات أيضاً، لكن ما الذي أقوله إنَّ الانتهاكات القديمة - الحقيقية جداً - وضعت فوق الأخرى - الكريهة جداً. إنهم يتكلّمون عن طغاة محليين عُقِلوا؛ لكن أذكّر بأنَّ الطغاة القدامى، بشكل عام، يتفقون جيداً مع الجدد، وأنّه قد نشأت بينهم، على حساب الشعب، حلقة للخدمات المتبادلة والتواطؤ.

يتكلّمون عن الحضارة، أتكلّم عن البرتلة (proletarianization)[11] والخداع.

من جهتي، أشنُّ دفاعاً منظماً عن الحضارات غير الأوروبية.

كل يوم يمر، كل إنكار للعدالة، كل ضربة من قبل الشرطة، كل مطلب غارق بالدماء للعمال، كل عارٍ مطموس، كل حملة تأديبيّة، كل عربة شرطة، كل دركي وكل رجل عصابة، يوضِّح لنا قيمة مجتمعاتنا القديمة.

كانت مجتمعات شعبية، لم تكن يوماً مجتمعات الأكثرية للقِلة.

لم تكن فقط مجتمعات ما قبل الرأسمالية، كما قيل، إنّما ومناهضة للرأسمالية.

لقد كانت مجتمعات ديمقراطية، دوماً.

لقد كانت مجتمعات تعاونيّة، مجتمعات أخويّة.

أُشنُّ دفاعاً منظماً عن مجتمعاتٍ دُمرت من قِبل الإمبرياليّة.

لقد كانوا الواقع، لم يدَّعوا أنهم الفكرة؛ بالرغم من

(11) أي عملية التحويل إلى البروليتاريا (المترجم).

أخطائهم، لم يكونوا ليُكرهوا أو يدانوا. لقد كانوا مكتفين أن يكونوا. عندهم، لا يوجد أي معنى لكلمة الفشل ولا لكلمة التحوّل. لقد أبقوا الأمل سليماً.

وفي الواقع إنّ هذه الكلمات هي الوحيدة التي يمكن، بكل صدق، تطبيقها على المشاريع الأوروبية خارج أوروبا. إنّ عزائي الوحيد هو تلك الفترات من سير الاستعمار؛ ان الأمم تنام لفترة من الوقت فقط، والشعوب تبقى.

هذا يقال، ويبدو أنّ في أوساطٍ معينة يدَّعون أنهم اكتشفوا فيَّ «عدواً لأوروبا» ورسول العودة إلى الماضي ما قبل الأوروبي.

من جهتي، أبحث عبثاً عن المكان الذي أعربت فيه عن مثل هذه الوجهات؛ أين قَلّلتُ من أهمية أوروبا في تاريخ الفكر البشري؛ أين بشَّرتُ بأي نوعٍ من العودة؟ أين ادّعيت أنه يمكن أن يكون هناك عودة.

الحقيقة هي أنني قلت شيئاً مختلفاً تماماً: علماً، أنّ المأساة التاريخية الكبرى لأفريقيا لم تكن بالاحتكاك المتأخر كثيراً مع باقي العالم، بقدر ما كانت بالطريقة

التي قد أُحدِث بها هذا الاحتكاك؛ إنَّ أوروبا بدأت «تشيع» في الوقت الذي وقعت فيه بأيدي أكثر المُمَوّلين العديمي الضمير ونقباء الصناعة؛ إنَّ مصيبتنا كانت اللقاء بتلك الأوروبا في طريقنا، وإنَّ أوروبا هي المسؤولة أمام المجتمع البشري عن أعلى كومة من الجثث في التاريخ.

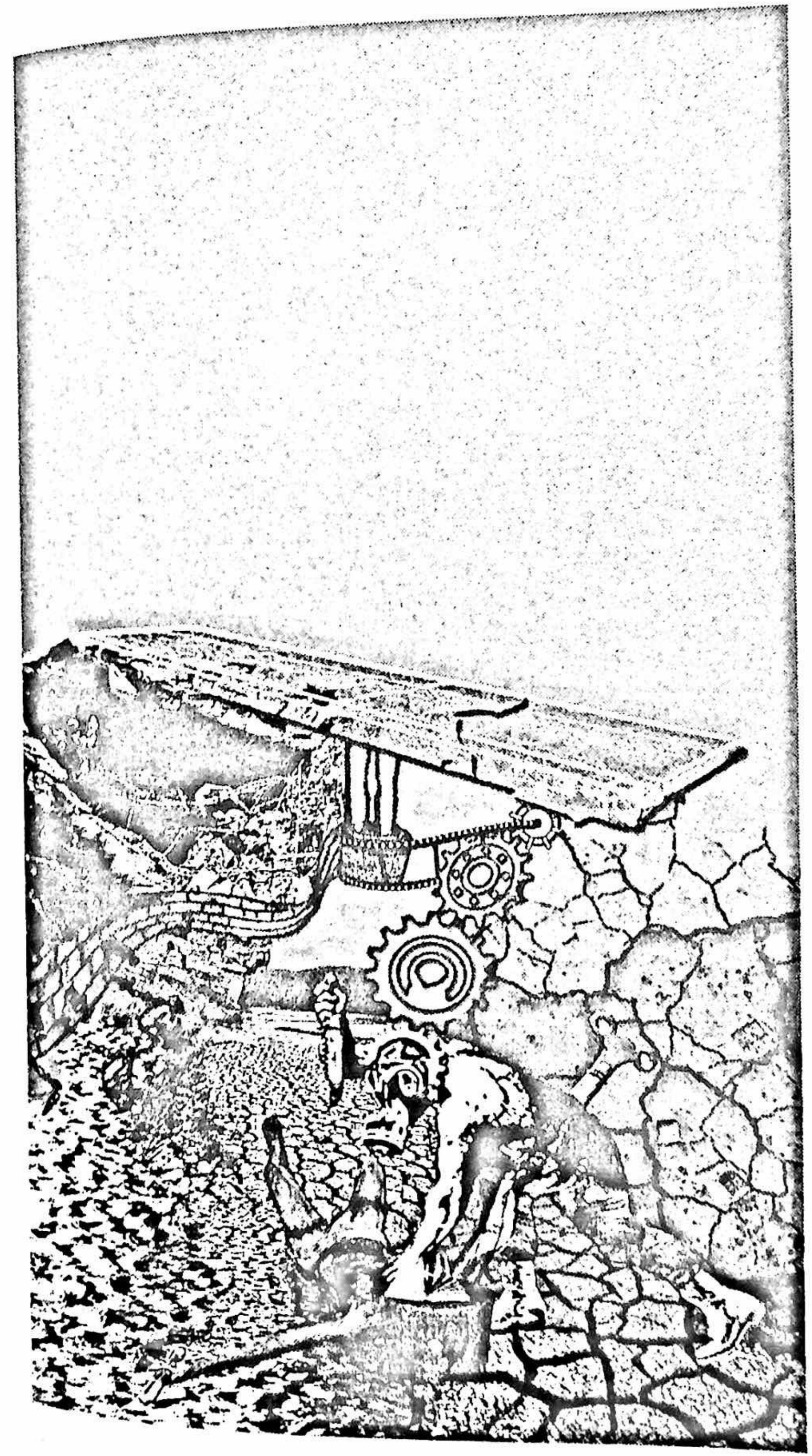
وفي ارتباطٍ آخر، بالحكم على الاستعمار، لقد أضفت فعلاً أنّ أوروبا قد اتفقت جداً مع جميع أسياد الإقطاع المحلِيين الذين وافقوا على أن يخدموا، تواطؤ خسيس محبوك معهم، جعلوا طغيانهم فعّالاً أكثر ومجدياً أكثر، وأنها حالياً قد اتجهت نحو إطالة مصطنعة لبقاء الماضي المحلّي في أخبث جوانبه.

لقد قلّت - وهذا أمر مختلف جداً - إنَّ أوروبا الاستعمارية قد وَحَّدَت الاستغلال العصري فوق الظلم القديم، عنصرية مقيتة فوق عدم المساواة.

على أنّه إذا هوجمتُ على أساس النيّة، أؤكد أن أوروبا الاستعمارية مخادعة بمحاولتها تبرير نشاطها الاستعماري المسلم به عبر التطوّر المادي الواضح الذي

تم إنجازه في ميادين معيّنة في ظل الأنظمة الاستعمارية - بما أنّ التغيير الفجائي ممكن دوماً، في التاريخ كما في أماكن أخرى؛ بما أنّ لا أحد يعلم في أي مرحلة من النمو المادي أين يمكن أنّ تكون هذه البلدان عينها لو أنّ أوروبا لم تتدخّل؛ بما أنّ الإعداد التقني في أفريقيا وآسيا، إعادة تنظيمهم الإداري، بكلمة، «أَوْرَبتهم»، لم تكن (كما ثُبت من خلال المثل الياباني) إطلاقاً مرتبطة بالاحتلال الأوروبي؛ بما أنّ الأوربة للقارات غير الأوروبية كانت يمكن أن تُنجز بصورة مختلفة عن مقتضى جزمة أوروبا؛ بما أنّ هذه الحركة للأوربة كانت في تقدمٍ؛ بما أنها أيضاً قد أُبطئت؛ بما أنّها كانت مشوّهة في جميع الأحوال عبر الاستيلاء الأوروبي.

والدليل على ذلك في الوقت الحاضر أنّ السكان الأصلانيين لأفريقيا وآسيا هم الذين يطالبون بالمدارس، وأوروبا الاستعمارية هي التي ترفضهم؛ إنّ الأفارقة هم الذين يطالبون بالموانئ والطرقات، وأوروبا الاستعمارية هي التي تبخل في هذا الشأن؛ إنّ المستعمَر هو الذي يريد التحرك قدماً، وأنّ المستعمِر هو الذي يجره إلى الخلف.



للذهاب أبعد، لا أخفي سراً عن رأيي في الوقت الحالي أنّ همجية أوروبا الغربية قد وصلت إلى مستوى عالٍ لا يصدق، وأنَّ التي تفوقت عليها فقط - وللحقيقة، فاقتها بكثير - هي همجية الولايات المتحدة.

وأنا لا أتكلم عن هتلر، أو حارس السجن، أو المغامرين، إنما عن «الرجل الصالح» أمامنا؛ ليس عن أعضاء الأس أس (SS)[12]، أو العصابة، لكن عن البرجوازية المحترمة. في وقتٍ مضى، أصبح ليون بلوي

---

(12) Schutzstaffel أي سرية الحماية، وهو جهاز شبه عسكري نازي، أسس في البدء كوحدة للحرس الشخصي لأدولف هتلر، ومن ثم تحول إلى أحد أهم وأقوى الأجهزة النازية في الرايخ الثالث، حتى أنه كان أعلى من الغستابو. ويعتبر المسؤول عن معظم الأعمال الوحشية التي قامت بها النازية... (المترجم).

(Léon Bloy) ساخطاً ببراءة إزاء حقيقة أنّ المحتالين، شهود الزور، المُزَوِّرين، اللصوص، والقوادين قد حُمِّلوا مسؤولية «إيصال المثال للفضائل المسيحية إلى جزر الهند الغربية».

لقد حققنا تقدماً: اليوم هو المالك لـ«الفضائل المسيحيّة» الذي تآمر - مع أي نجاح صغير - لأجل شرف إدارة الأقاليم ما وراء البحار وفقاً لأساليب المُزَوِّرين والجلادين.

إشارة إلى أنّ الوحشية، الكذب، السفالة، والفساد قد غرقت في أعماق الروح البرجوازية الأوروبية.

أُكرر أنني لا أتكلم عن هتلر، أو الأس أس، أو المذابح، أو الإعدامات المُعجلة، إنما عن ردة فعل مضبوطة غير واعية، انعكاس مباح، القليل من اللامبالاة المشروعة. وإذا كان الدليل مطلوباً، يمكنني أن أذكر مشهداً لهستيريا آكلي لحوم البشر الذي كان لي شرف مشاهدته في المجلس الوطني الفرنسي.

بحق الكواكب، أعزائي الزملاء (كما يقولون)،

أخلع لك قبعتي (قبعة آكلي لحوم البشر، طبعاً).

فكّر في الأمر! تسعون ألف قتيل في مدغشقر! الهند الصينية مرِّغت تحت الأقدام، سحقت إلى فتات، أُغتيلت، تعذيب أعيد من عمق العصور الوسطى! وأيُّ مشهدٍ آسر هذا! الارتجاف الشهي الذي أيقظ نواب الغفوة. الصخب البري! بيدو (Bidault)، يبدو كأنه رقاقة العشاء الرباني مغموس بالغوط - وحشية متملقة كعفة العاهرة؛ موته (Moutet) - وحشية الصفقات المشبوهة والهراء الرنّان؛ كوست فلوريه (Coste-Floret) - وحشية دب صغير غير مهذب، مغفل متخبط.

ماثلاً، أيها السادة! مع العبارات الجميلة الباردة والرسمية كما لفائف المومياء التي يكبلون بها المدغشقري. مع بعض الكلمات المبتذلة يطعنونه من أجلك. في الوقت الذي تستغرقه ليسيل لعابك، ينزعون أحشاءه من أجلك. عمل ممتاز! لن تُهدر أي قطرة دم.

والذين يشربونه دون تردد، حتى القطرة الأخيرة.

الذين مثل راماديه (Ramadier)، يدهنون وجوههم به

على نسق سيلينوس (Silenus)[13]؛ فونتلوب إسبرابر (Fontlup-Esperaber)[14]، الذي ينشّي شاربه به، الشارب الفظ للغالي القديم؛ ديجاردان (Desjardins) العجوز ينحني لتسربات الخابية ويسكر نفسه معهم كما لو أنها نبيذ جديد. العنف! عنف الضعيف. شيء هام: ليس رأس الحضارة الذي بدأ يفسد أوّلاً. إنه القلب.

أعترف أنّ صحة أوروبا والحضارة المتورطتين، بهذه الصرخات «أقتل! أقتل!» و«فلنرَ بعض الدماء»، والتي قُذف بها بارتجاف رجل عجوز وشباب خليق عُلِّموا من قبل آباء اليسوعية، تُضرم فيَّ انطباعاً كريهاً أكثر بكثير من أعظم سرقات المصرف المثيرة التي تحصل في باريس.

---

(13) في الأسطورة الكلاسيكية سيلينوس هو الشبق، ابن بان (Pan). كان الأب الحاضن لباخوس (Bacchus)، إله النبيذ، ووصف بالعجوز المرح، ويكون ثملاً معظم الأحيان (المترجم إلى اللغة الإنكليزية).

(14) ليس بالرجل السيء في أساسه، كما أثبتت الوقائع لاحقاً، إلّا أنه كان قد فقد صوابه في تلك الأيام.

وأنّ، فلتتذكّروا، هذا ليس استثناءً بأي حال. بالعكس، الوقاحة البرجوازية هي القاعدة. لقد ظللنا على سكتها لمدة قرن. نسمع لها، نأخذها على حين غرة، نستشمها، نتتبعها، نخسرها، نجدها ثانيةً، نتظللها، وأنها يوماً بعد يوم مفضوحة بشكل مقزز أكثر. آه! عنصرية هؤلاء السادة لا تقلقني. لا أسخط عليها. أختبرها بكل بساطة. أدونها، هذا كل شيء. تقريباً أنا ممتن لها للتعبير عن نفسها بشكل منفتح ولظهورها في وضح النهار، كعلامة. علامة على أنّ الطبقة الجريئة التي عصفت مرّة بالباستيل هي عاجزة. العلامة التي تشعر بنفسها أنّها هالكة. العلامة التي تشعر بنفسها أنها جُثّة. وعندما تبدأ الجثة بالثرثرة، تحصل على شيء من هذا القبيل:

> لقد كان هناك فقط الكثير من الحقيقة لهذا الزخم الأوّل للأوروبيين الذين، في قرن كولومبوس، رفضوا أن يدركوا السكان المنحطين للعالم الجديد كإخوانهم... لا يستطيع المرء أن يحدق

في الوحشي لوهلة دون قراءة اللعنة المكتوبة، لا أقول في روحه فقط، بل وحتى في الشكل الخارجي لجسده.

وموقّعة جوزيف دي مستر (Joseph de Maistre).

(وهذا ما يُطحن عبر المطحنة المُبهمة).

ومن ثُمَّ تحصل على هذا:

من وجهة نظر انتقائية، سأنظر للأمر كنظير للشؤم إذا كان ينبغي أن يكون هناك تضخم عددي هائل للعناصر الصفراء والسوداء، والتي سيكون من الصعب القضاء عليها. ومع ذلك، فإذا نُظم المجتمع في المستقبل على أُسسٍ ازدواجية، مع طبقة حاكمة للشُقر المستطيلي الرأس وطبقة للعرق الأدنى محصورة للأعمال الشاقة، فمن الممكن أن هذا الدور الأخير قد يسقط إلى العناصر الصفراء والسوداء. في هذه الحالة، علاوة على ذلك، لن يكونوا عقبة أمام الشقر المُستطيلي الرأس وإنما منفعة... يجب أنْ لا

ننسى أنها(العبودية) ليست أكثر غرابة من تدجين الحصان أو الثور. لذلك فمن الممكن أن تظهر من جديد في المستقبل بشكل أو بآخر. وبأي حال من الأحوال، فإنه على الأرجح أمر حتميّ أن يحصل هذا، ما لم يظهر الحل التبسيطي – العرق الأسمى الوحيد، متجانساً من خلال الانتقائية.

هذا ما يُطحَن عن المطحنة العلمية، وموقّعة بـ لابوج (Lapouge).

وتحصل على هذا أيضاً (مطحنة أدبية هذه المرة):

أعـرف أنني يجب أن أؤمـن بنفسي كفوقي قياساً بمساكين باياس (Bayas) في ممبيريه (Mambéré). أعلم أنني يجب أن أفخر بدمي. عندما يكف الرجل الفوقي عن الإيمان بفوقيته، فهو يكف فعلياً عن أن يكون فوقياً... عندما يكف العرق الفوقي عن الإيمان بأنه عرق مختار، فعلياً يكف عن كونه مختاراً.

ومُوقّع بسكاري-جندي-أفريقيا (Psichari).

وترجم هذا إلى رطانة الصحف وستحصل على فاغيه (Faguet):

> في النهاية، البربري ينتمي إلى العرق نفسه، مثل الرومان والإغريق. هو ابن العم. الإنسان الأصفر، الإنسان الأسود، ليس ابن عمنا. هنا يوجد اختلاف حقيقي، مسافة حقيقية، وعظيمة جداً: مسافة إثنية. في النهاية، الحضارة لم تُصْنع أبداً إلّا من قبل البيض... إذا أوروبا أصبحت صفراء، بالتأكيد سيكون هناك تدهور، مرحلة جديدة من الظلمة والارتباك، أي عصور وسطى أخرى.

ومن ثُمَّ أسفل، دوماً أسفل، إلى قاع الحفرة، أسفل مما تستطيع أن تذهب المجرفة، السيّد جوول رومان (Jules Romains)، من الأكاديمية الفرنسية و الريفيو دو دمو نده (*Revue des Deux Mondes*). (لا يهم، بالطبع، أنّ السيّد فاريغوول Farigoule غيّر اسمه مرة أخرى وهنا

يسمي نفسه سالست Salsette لأجل المناسبة.[15]) الأمر الهام أنّ السيّد جوول رومان يذهب بعيداً إلى حد يكتب فيه هذا:

> أنا على استعداد لمواصلة النقاش فقط مع الناس الذين يوافقون على طرح الفرضية التالية: فرنسا التي تشمل على أرضها المركزية عشرة ملايين من السود، خمسة أو ستة منهم في غور الغارون (Garonne) هل سكاننا البواسل في الجنوب الغربي لم يُمسوا أبداً بالتعصب العرقي؟ هل لم يكن هناك أي أدنى خشية إذا المسألة قد صعدت لتحوّل كل السلطات إلى هؤلاء الزنوج، أبناء العبيد؟... عارضني مرة صف من نحو عشرين أسود صافياً... حتى لن أُعيب زنوجنا وزنجياتنا

(15) جوول رومان هو الاسم المستعار للويس فاريغوول، والذي اعتمده بشكل قانوني عام 1953. سالست هو شخصية في أحد كتبه، سالست يكتشف أميركا (*Salsette Discovers America*)، 1942. غير أنّ الفقرة المقتبسة تظهر فقط في الطبعة الثانية الموسّعة للكتاب المنشور في فرنسا عام 1950 (المترجم إلى اللغة الإنكليزية).

على مضغ العلكة. فقط سوف أذكر... أنَّ هذه الحركة لديها التأثير في التشديد على الأحناك، والمعاني المتداعية التي تتبادر إلى الذهن تستحضر الغابات الاستوائية بدلاً من موكب الباناثانيا (Panathenaea)[16]... العرق الأسود لم ينتج بعد، ولن ينتج، أنشتايناً، سترافينسكي، جرشوين.

مقارنة غبية، تحتاج إلى مقارنة غبية أخرى: بما أنّ نبي الريفيو ده موندة وأماكن أخرى تدعوننا لنوازي بين أمورٍ «منفصلة تماماً»، هل يُسمح لي، الزنجي الذي أنا عليه، بالتفكير (لا أحد يكون سيّداً على معانيه المتداعية الحرّة) أن صوته لا يقرب إلى حفيف البلوط في دودونا

(16) مهرجان سنوي كان يقام في أثينا بشرف آلهة أثينا، حيث كان يجتمع المواطنون الأحرار، والمقاتلون، وتقام عروضات موسيقية، ومباريات قتالية... ويعتبر المهرجان أحد أهم المهرجانات اليونانية وواحداً من رموز الحضارة (المترجم).

(Dodona) – أو حتى اهتزازات المرجل – بقدر ما يقرب إلى نهيق حمار ميزوري[17].

مرّة أخرى، أنا أدافع منهجياً عن حضاراتنا الزنجية القديمة: لقد كانوا حضارات دمِثة.

إذاً المشكلة الحقيقية، تقول أنت، هي بالعودة إليها. كلا، أكرر. نحن لسنا من الذين يعتبرون أنَّ المسألة هي «هذا أو ذاك». بالنسبة لنا، المشكلة ليست أن نصنع محاولة مثالية وعقيمة لإعادة الماضي، بل تجاوزه. ليس مجتمعاً ميتاً الذي نريد إحياءه. نترك ذلك للذين يذهبون للغرائبية (exoticism). وليس هذا هو المجتمع الاستعماري الحالي الذي نأمل إطالته، الجيفة الأكثر تعفناً التي أُفسِدَت منذ الأزل تحت الشمس. هو مجتمع جديد الذي علينا إبداعه، بمساعدة جميع إخواننا العبيد،

(17) الردود على المقام الإغريقي الشهير في دودونا كانت تنعكس بحفيف أوراق شجر البلوط المقدس. المرجل، كنز شهير للمعبد، مؤلف من صورة نحاسية لجسم يحمل بيده سوطاً مصنوعاً من سلاسل، عندما، تهتز بفعل الريح، الذي يضرب المرجل النحاسي، تصدر ذبذبات ممتدة غير مألوفة (المترجم إلى اللغة الإنكليزية).

مجتمع ثري بجميع القدرات المنتجة للعصر الحديث، حميم بكل إخاء الأيام السالفة.

بالنسبة لبعض الأمثلة التي تبيّن أنَّ هذا ممكن، يمكن أن ننظر إلى الاتحاد السوفياتي.

لكن دعنا نعود إلى السيّد جوول رومان:

لا نسطيع القول إنَّ البرجوازي الصغير لم يقرأ شيئاً أبداً. بالعكس، لقد قرأ كل شيء. افترس كل شيء.

لكن، دماغه يعمل على طريقة الأنماط الأولية لنظمٍ هضمية. إنه يصفّي. والمصفاة تحتفظ فقط بما يمكن أن يغذي الجلد الغليظ لضمير البرجوازية الصافي.

قبل وصول الفرنسيين إلى بلادهم، كان الفيتناميون شعباً لحضارة قديمة، فريداً ومثقفاً. لنذكر أن هذه الحقيقة تزعج عملية الهضم لمصرف الهند الصينية (Banque d'Indochine). إبدأ بتشغيل آلة النسيان!

هؤلاء المدغشقريون الذين يُعَذَّبون اليوم، بأقل من قرنٍ مضى كانوا شعراء، فنانين، إداريين؟ هسسس! إبقِ شفاهك مزررة! ويسقط السكون، سكون عميق

كالخزنة! لحسن الحظ، يبقى هناك الزنوج. آه! الزنوج! دعنا نتكلَّم عن الزنوج!

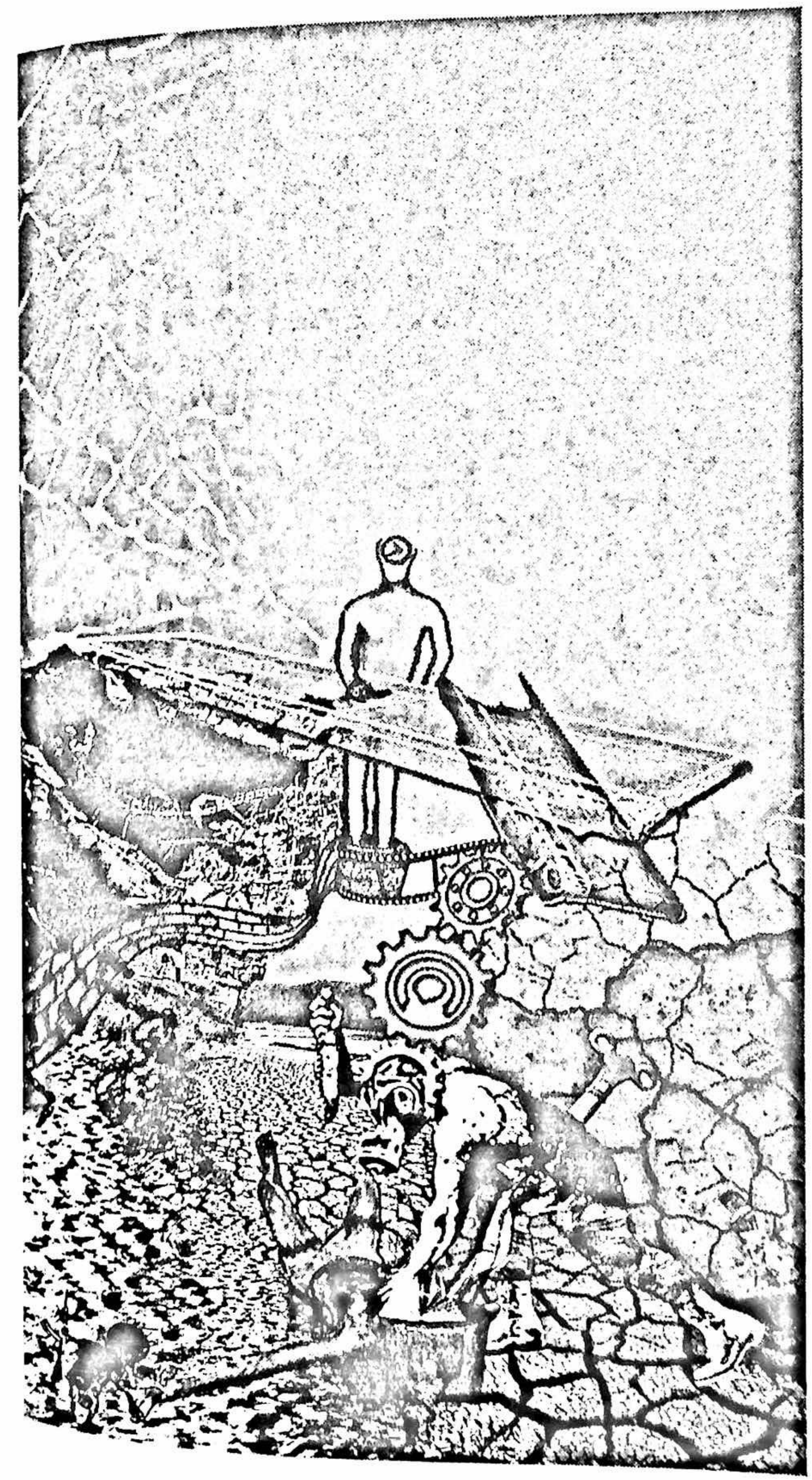
فليكن ذلك، دعنا نتكلّم عنهم.

عن الممالك السودانية؟ عن تماثيل برونز البنين؟ تماثيل شانغو (Shango)؟ حسناً لا بأس؛ سيكون تغييراً عن كل الفن السيِّء المثير الذي يزيِّن العديد من العواصم الأوروبية. عن الموسيقى الأفريقية. لِمَ لا؟

وعن ما قاله الرحالة الأوائـل، ما رأوه... ليس أولائك الذين يخدمون مدراء الشركة! لكن الدلبيين (d'Elbées)، المارشايين (Marchais)، البيغافيتايين (Pigaffetas)! ومن ثُمَّ فروبينيوس (Frobenius)! قُل إنك تعرف من كان فروبينوس؟ وقد قرأنا معاً: «مُتحضرون حتى نخاع عظامهم! فكرة الزنجي البربري هي اختراع أوروبي».

البرجوازي الصغير لا يريد أن يسمع بعد. يفرك أذنيه ويطرد الفكرة بعيداً.

فالفكرة، ذبابة مزعجة.



لذا، أيها الرفيق، سوف تعتبر الأعداء - بترفع، وبوضوح، وبإصرار - طالما أنهم ليسوا فقط حكاماً ساديين، ومصرفيين جشعين، ليسوا فقط الحكام الذين يعذبون والمستعمِرين الذين يجلدون، وليس فقط الفاسد، ساسة عبدة للمال وقضاة خانعين. وإنما بالمثل وللسبب ذاته، هم صحفيين سامّين، وأكاديميين مصابين بتضخم الغدة الدرقية، مكلّلين بالدولارات والغباء، إثنوغرافيين يذهبون للغيبيات، علماء الدين البلجيكيين المتغطرسين، ثرثرة النخبة الكريهة المولودة من نتانة فخذ نيتشه، الأبويين، الحاضنين، المفسدين، المطرئين، محبي الغرائبية، المقسِّمين، علماء الاجتماع الزراعي، المخادعين، المحتالين، فنانّي الكلام الفارغ،

الدجالين، وبشكل عام، كل أولئك الذين، يؤدون وظائفهم في التقسيم الدنيء للعمل لأجل الدفاع عن المجتمع الغربي البرجوازي، يحاولون بطرق متنوعة وبانحرافات مخجلة، تقسيم القوى التقدمية – وحتى لو عنى ذلك إنكار الإمكانية الحقيقية للتقدم – كلهم أدوات للرأسمالية، كلهم، سراً أو علانية، أنصار الاستعمار الناهب، كلهم مسؤولون، كلهم كريهون، كلهم تجار الرقيق، من الآن فصاعداً كلهم مسؤولون عن العنف للفعل الثوري.

واكنس كل المُبهِّمين، وكل مبتدعي الذرائع، الدجّالين والمحتالين، التجار بالهراء. ولا تسعى لمعرفة ما إذا كان هؤلاء السادة شخصياً بإيمانٍ جيد أو سيّئ، ما إذا كانوا شخصياً جيّدي أو سيّئي النيّات. ما إذا شخصياً كانوا – وأنّ هذا، في الوجدان الشخصي لبيتر (Peter) أو بول (Paul) – أو لم يكونوا استعماريين، لأن الأمر الأساسي هو أنّ إشكاليتهم الذاتية جداً بحسن النية هي بالكامل غير عائدة إلى الآثار الاجتماعية الموضوعية

للعمل الشرير الذي يؤدونه كحرّاس للاستعمار.

وفي هذه العلاقة، أستشهد بأمثلة (أخذت عمداً من أنماط مختلفة جداً):

- من غورو (Gourou)، في كتابه البلدان الاستوائية (*Les Pays tropicaux*)، الذي وسط بعض الملاحظات الصحيحة، حيث عبَّر في الأطروحة الأساسية، وهي منحازة وغير مقبولة، أنّه لم يكن هناك أبداً أي حضارة استوائية عظيمة، وأنّ الحضارات العظيمة وُجدت فقط في المناخات المعتدلة، أنّ بذرة الحضارة في كل بلد استوائي تأتي، ويمكن أن تأتي فقط، من أي مكان آخر خارج المناطق الاستوائية، وأنه إذا كانت البلدان الاستوائية ليست تحت اللعنة البيولوجية للعنصريين، فهي على الأقل ترافقهم، مع نفس العواقب، لعنة جغرافية لا تقل تأثيراً.

- من القس تمبلز (Tempels)، مبشِّر وبلجيكي، في نسخته لـ«فلسفة البانتو» (Bantu)، لزج ونتن بقدر ما يتمنى المرء، لكنه اكتُشِفَ في اللحظة المناسبة جداً،

كما الهندوسية اكتُشِفَت عبر الآخرين، في سبيل مواجهة «الشيوعية المادية» التي، تبدو أنها، تهدِّد بتحويل الزنوج إلى «مشردي الخلق».

- من مؤرخي أو روائيي الحضارة (الأمر نفسه) - ليس من هذا أو ذاك، وإنما من جميعهم، أو معظمهم- موضوعيتهم المغلوطة، استعلائيتهم[18]، عنصريتهم الخبيثة، عاطفتهم المنحرفة لرفض الاعتراف بأي استحقاق في الأعراق غير البيضاء، خصوصاً أعراق البشرة السوداء، هوسهم باحتكار كل المجد لعرقهم فقط.

- من علماء النفس، علماء الاجتماع وآخرين، حول أرائهم عن «البدائية»، تحقيقاتهم المزوَّرة، تعميماتهم الأنانية، تكهناتهم المغرِضة، إصرارهم على الهامشي' سمة «منفصلة» لغير البيض. و - كما أنّ كل من هؤلاء السادة، لأجل الطعن بضعف الفكر البدائي لسلطة أعلى' يدّعي بأنّ فكره مبني على العقلانية الأمتن - إنكارهم

(18) الاستعلائية أي الشوفينية (المترجم).

الهمجي، في سبيل القضية، تعبير من ديكارت، الطباع الشمولية، أن «المنطق... وُجِدَ كاملاً ومكتملاً في كل شخص»، وأنّه «حيثما يتعلق الأمر بأفراد من الفصيلة ذاتها، فقد يكون هناك منازل بالنسبة لخاصيتهم العرضية، وإنما ليس بالنسبة لهيئاتهم أو طبائعهم»[19].

لكن دعنا لا نسرع كثيراً. من المهم متابعة بعض هؤلاء السادة.

لن أتناول قضية المؤرخين، لا مؤرخي الاستعمار ولا علماء الآثار المصرية. القضية الأولى واضحة جداً، وأمّا الأخيرة، فالآلية التي يخدعون بها قراءهم قد فُكِكت نهائياً من جانب الشيخ أنتا ديوب (Sheikh Anta Diop) في كتابه الأمم الزنجية والثقافة (*Nations nègres et culture*)، الكتاب الأكثر جرأةً من جانب زنجي، والذي سيلعب دوراً مهماً من دون شك في صحوة أفريقيا[20].

(19) من الصفحات الأولى من كتاب ديكارت، مقال عن المنهج (*Discours de la method*)، 1960، Penguin (المترجم إلى اللغة الإنكليزية).

(20) انظر للشيخ أنتا ديوب، الأمم الزنجية والثقافة، الطبعة

الصادرة عن Présence Africaine، 1955. لأن هيرودوت (Herodotus) قد أعلن أن المصريين كانوا بالأساس مجرد مجموعة من الاثيوبيين، وبعد تكرار ديدوروس سيكولوس (Diodorus Siculus) للموضوع ذاته وفاقم هجومه عبر تصوير الإثيوبيين بطريقة لا يتسرب إليها الخطأ («أغلبيتهم وجميعهم» '*plerique omnes*'، ولاقتباس الترجمة اللاتينيّة، «معظم وجوههم سوداء، وشعرهم أجعد» '*niro sunt colore, facie sima, crispis capillis*'، الكتاب الثالث، القسم الثامن)، كان من الأهمية القصوى أن يشن هجوماً مضاداً. والذي سُلِّم به، وتقريباً من معظم العلماء الغربيين، الذين خططوا بتعمد لتمزيق مصر عن أفريقيا، وبالرغم من المجازفة من أنّ ذلك لم يعد قابلاً للتفسير، بقي هناك عدة طرق لإنجاز المهمّة. منهجية غوستاف البون (Gustave Le Bon)، فظّة، توكيد وقح: «المصريون هم حاميّون، وهذا يدعو للقول إنّ البيض مثل الليديين (Lydians)، الغوتيليين (Getulians)، المغاربة (Moors)، النوميديين (Numidians)، البربر (Berbers)»؛ منهجية ماسبيرو (Maspero)، والتي تقوم على إقامة علاقة، مناقضة لكل الاحتمالات، بين اللغة المصرية واللغات الساميّة، وبالتحديد النمط العبري-الآرامي، بحيث يأتي الاستنتاج أنّ المصريين في الأصل كانوا ساميين؛ منهجية ويغال (Weigall)، هذه المرّة جغرافية، التي تنص على أن

فلنعد بعض الشيء إلى الخلف. إلى السيّد غورو، بالتحديد.

هل أحتاج أن أقول إنّ العالم البارز قد مسح، من ارتفاع شاهق، السكان الأصلانيين، الذين «لم يأخذوا مكاناً» في تطور العلوم الحديثة؟ وإنّها ليست من جهد

الحضارة المصرية قد وُلِدت فقط في مصر السفلى، ومن هناك انتقلت إلى مصر العليا، منتقلةً إلى أعلى النهر... مدركاً أنه لا يمكن الانتقال نزولاً (هكذا). القارئ سيتوعب أنّ السبب السرّي لما كان هذا مستحيلاً هو أنّ مصر السفلى قريبة من البحر الأبيض المتوسط، وبالتالي قريبة من السكان البيض، في حين أنّ مصر العليا هي قريبة من بلاد الزنوج. وفي هذا الصدد، من الممتع أن نعرض على نظرية ويغال آراء شاينفوورت (Scheinfurth) (في قلب أفريقيا، المجلد الأول، *Au Coeur de l'Afrique*, vol.1) عن أصل النباتات والحيوانات في مصر، حيثُ حدد موقعها على بعد «مئات الأميال من منبع النهر».

[هناك لغط في تفسير معنى الـ'Moor' إذ تأتي حيناً بمعنى الشمال أفريقي وأحياناً أخرى بمعنى عربي، ومسلم، هذا إذا لم نذكر إنها تحولّت إلى عبارة تحقير للسكان الأصلانيين في أميركا «الهنود الحمر»، على أنها في جميع الحالات تعتبر شتيمة من الأبيض لغير البيض].

هؤلاء السكان، من كفاحهم التحرري، من قتالهم الصلب للحياة، الحرية، والثقافة، أنه يتوقّع الخلاص للبلاد الاستوائية أن يأتي، ولكن من مُستعمِر جيِّد - بما أنَّ القانون ينصُّ قطعاً أنَّ «العوامل الثقافية تطوَّرت في المناطق غير الاستوائية والتي تؤمِّن وستؤمِّن التطور في المناطق الاستوائية نحو عدد أكبر من سكان وحضارة أرقى».

لقد قلتُ إنَّ، كتاب السيّد غورو يحتوي على بعض الملاحظات الصحيحة: «البيئة الاستوائية والمجتمعات الأصلانية»، يكتب، صائغاً ورقة الحساب عن الاستعمار، «قد عانوا من التقديم لتقنياتٍ معلولة الاقتباس بالنسبة لهم، من السُخرة، خدمة الحمّال، العامل المقهور، العبودية، من نقل العمّال من إقليم إلى آخر، التغيُّرات المفاجئة في البيئة البيولوجية، ظروفٍ جديدة خاصة أقل استجابة».

سِجِلاً باهراً! النظرة إلى وجه رئيس الجامعة! النظرة إلى رئيس الوزراء عندما يقرأ هذا! صديقنا غورو

أفلت مِقوَدَه؛ الآن انتهى الأمر، سيقول كل شيء؛ إنه يبدأ: «تجد البلدان الحارة النموذجية نفسها أمام المعضلة التالية: ركود اقتصادي مقابل حماية السكان الأصلانيين أو نمو اقتصادي مؤقت وتدهور السكان الأصلانيين». «سيّد غورو، هذا خطير للغاية! أمنحك إنذاراً جاداً: في هذه اللعبة مهنتك هي التي ستكون على المحك». إذاً صديقنا غورو يختار أن ينسحب ويكف عن تفصيل أنّه، إذا المعضلة موجودة، فإنّها موجودة فقط ضمن بنية النظام السائد؛ أنّه إذا كانت هذه المفارقة تؤسس قانوناً حديدياً، فإنه القانون الحديدي لرأسمالية المستعمرين فقط، وبالتالي لمجتمع ليس هالك فقط وإنما بالفعل في طور الهلاك.

كم هي نجسة هذه الجغرافية الدنيوية!

وإن كان هناك أيُّ شيء أفضل، فهو القس تمبلز. دعهم ينهبون ويعذبون في الكونغو، دع المستعمِر البلجيكي يستولي على جميع الموارد الطبيعية، دعه يقمع أي حرية، دعه يسحق كل كبرياء - دعه يذهب

بسلام، الأب الموقّر تمبلز يوافق على كل هذا. لكن احـذر! أنت ذاهب إلى الكونغو؟ احترم - لا أقول ملكية الأصلاني (الشركات البلجيكية العظمى قد تعتبر ذلك لسعةً لها)، لا أقول حرية الأصلانيين (المستعمِر البلجيكي قد يظن هذا كلاماً تخريبياً)، لا أقول وطن الكونغوليين (الحكومة البلجيكية قد تأخذ ذلك بشكلٍ خاطئ) - أقول: أنت ذاهب إلى الكونغو؟ احترم فلسفة البانتو!

«حقاً سيكون ذلك فظيعاً»، يكتب القس تمبلز، «إذا المعلِّم الأبيض جنح نحو الإصرار على تدمير خاصِّية الرجل الأسود، الروح الإنسانية الخاصة، والتي هي الحقيقة الوحيدة التي تمنعنا من اعتباره مخلوقاً دونياً؛ سيكون ذلك جريمة بحق الإنسانية، من جانب المستعمِر، أن يحرر الأعراق البدائية من ذلك وهو صحيح، من ذلك الذي يؤسس لنواة الحقيقة في فكرهم التقليدي، الخ».

ما هذا الكرم، أبتي! وما هذه النخوة!

ثم بعد، إعْلَم أن فكر البانتو في الأساس وجودي

(انطولوجي)؛ وأنّ وجودية البانتو قائمة على مفاهيم أساسية حقيقية لقوة الحياة والتسلسل الهرمي لقوى الحياة؛ وأنّه بالنسبة للبانتو، النظام الوجودي الذي يعرِّف العالم يأتي من الله، وكأي أمرٍ إلهي، يجب أن يُحترم[21].

مدهـش! الـكل يكسـب: الشـركات الكبـرى، المستعمِرون، الحكومة - الكل باستثناء البانتو، بالطبع.

بما أن فكر البانتو وجودي، لذلك فإنه يطلب فقط إرضاء الطبيعة الوجودية. رواتب لائقة! مسكن مريح! طعام! هؤلاء البانتو هم أرواح نقية، أقول لك: «ما يتوقون إليه أولاً وقبل كل شيء ليس تحسين وضعهم الاقتصادي والمادي، إنما اعتراف الرجل الأبيض واحترامه لكرامتهم كبشر، قيمتهم الإنسانية الكاملة».

خلاصة القول، ترفع قبعتك لقوة حياة البانتو، تمنح لحظة لروح البانتو الخالدة. وهذا كل ما يكلفك! عليك الاعتراف بأنك تنسحب برخص!

---

(21) من الواضح أنني لا أهاجم فلسفة البانتو هنا، ولكن الطريقة التي يحاول أناس معيّنين أن يستخدموها لغاياتٍ سياسية.

بالنسبة للحكومة، لِمَ عليها أن تتذمر؟ بما أنّ، القس تمبلز يدوِّن بارتياح واضح، «من اتصالهم الأول مع الرجل الأبيض، نظر إلينا البانتو من وجهة النظر الوحيدة الممكنة لهم، من وجهة نظر فلسفة البانتو»، و«دمجونا داخل تراتبيتهم الهرمية لقوى الحياة على مستوى عالٍ جداً».

بكلام آخر، نظّموها بحيث أن الرجل الأبيض، وبالتحديد البلجيكي، بل وأكثر تحديداً ألبرت أو ليوبولد (Leopold)، يأخذ مكانه على رأس التراتبية الهرمية لقوى حياة البانتو، وقد أنهيت الخدعة. سيكون عليك جلب هذه المعجزة للسير: إله البانتو سيتحمّل المسؤولية عن التراتبية البلجيكية الاستعمارية، وأي بانتو يجرؤ على رفع يده ضدها سيكون مذنباً لتدنيسه المقدسات.

بالنسبة إلى السيّد مانوني (Mannoni)، نظراً لكتابه وملاحظاته عن الروح المدغشقرية، فهو يستحق أن يؤخذ على محمل الجد.

إتبعه خطوة خطوة من خلال دهاليزه لخدعه

السحرية الصغيرة، وسيثبت لك بوضوح النهار أن الاستعمار مبني على علم النفس، أن هناك في هذا العالم مجموعة من البشر الذين، لأسبابٍ مجهولة، يعانون مما يجب أن يسمّى عقدة التبعيّة؛ أن هذه المجموعات خُلِقت نفسياً لأجل التبعيّة؛ أنهم يحتاجون التبعيّة، أنّهم ينحتونها، يطلبونها، يتطلبونها؛ أنّ هذا هو الحال مع معظم الشعوب المستعمَرة ومع المدغشقريّين بالتحديد.

سحقاً للعنصرية! سحقاً للاستعمار! يفوحون بالهمجية. لدى السيّد مانوني أمراً أفضل: التحليل النفسي، المنمق بالوجودية، يكشف عن نتائج مذهلة: الابتذال المهترئ تحت الكعب أُعيد نعله إليك بصناعة جيِّدة كأنه جديد؛ أسخف القناعات المسبقة قد فُسِّرَت وبُرِّرَت؛ وكما لو كان سحراً، المثانة استحالت مصباحاً. لكن استمع له:

> إنه قدر الغربي أن يواجه الواجب المنزل في الوصية أنت سوف تهجر أمك وأباك. هذا الواجب غير مفهوم بالنسبة إلى المدغشقري. في وقتٍ

معيَّن من تطوره، كل أوروبي يكتشف في ذاته الرغبة... لكسر قيود التبعية، ليصبح المساوي لأبيه. المدغشقري، أبداً! لم يختبِر التنافس مع السلطة الأبوية، «الاحتجاج الرجولي»، أو الدونية الأدلرية (Adlerian inferiority) - المصاعب التي يجب على الأوروبي أن يتخطاها والتي تنتج النماذج المتحضرة... للمبادرة بالطقوس التي يحقق بها المرء الرجولة...

لا تدع رونق المفردات، المصطلحات الجديدة، تخيفك! أنت تعرف اللازمة القديمة: «الـ-زنوج-هم-أطفال-كبار». يأخذونها، يلبسونها لك، يُحبكونها لك. المحصلة هي مانوني. مرّة أخرى، كن مطمئناً! في بداية الرحلة قد يبدو الأمر عويصاً قليلاً، لكن ما أن تصل إلى هناك، سوف ترى، سوف تجد كل حقائبك مجدداً. لن يُفقد شيء، ولا حتى عبء الرجل الأبيض المعروف. لذلك إمنح أُذناً: «خلال هذه المصاعب» (المحفوظة للغربي)، «ينتصر المرء على الخوف الطفولي من الهجر

ويكتسب الحرية والاستقلال، واللذان يشكلان الملكية الأثمن، إذ انهما من أعباء الرجل الغربي».

والمدغشقري؟ أنت تسأل. قد يقول كيبلينغ (Kipling) إنه عرق كاذب من العبيد. أما السيّد مانوني فيعرض تشخيصه: «المدغشقري لا يحاول حتى أن يتخيَّل وضعاً من الهجر كهذا... لا يرغب الاستقلال الذاتي ولا المسؤولية الحرة». (هيا، أنت تعرف كيف هو الأمر. هؤلاء الزنوج لا يستطيعون حتى تخيُّل ما هي الحرية. لا يريدونها، لا يطلبونها. إنهم الدعاة البيض الذين يضعون ذلك في رأسهم. وإذا منحتها لهم، لن يعرفوا ماذا يفعلون بها).

إذا أشرت إلى السيّد مانوني أن المدغشقريين على الرغم من ذلك قد تمردوا عدة مرات منذ الاحتلال الفرنسي ومؤخراً في 1947، السيّد مانوني، المخلص لافتراضاته، سيشرح لك أنّ هذا سلوك عُصابي محض، جنون جماعي، هروب مسعور؛ أنّ، أكثر من ذلك، في هذه الحالة لم يكن مطلب المدغشقريين الإعداد

لاكتساب أهداف حقيقية وإنما «أمناً متخيَّلاً»، والذي يفترض بوضوح أنّ الاضطهاد الذي يحتجون عليه هو اضطهاد متخيَّل. هكذا بوضوح، هكذا بجنون، بحيث يستطيع المرء التحدث عن نكران وحشي، تبعاً للنموذج الكلاسيكي للفيجيّ (Fijian) الذي يحرق المنشفة الجافة للقبطان الذي عالجه من جرحه.

إذا انتقدتَ الاستعمار الذي يقود السكان الأكثر سلاماً إلى القنوط، السيّد مانوني سوف يشرح لك بعد كل هذا، أنَّ المسؤول ليس المستعِمر الأبيض إنما المستعمَر المدغشقري. سحقاً لكل هذا، يعتبرون البيض كالآلهة ويتوقعون منهم كل ما يتوقع المرء من الألوهية!

إذا اعتقدتَ أنّ العلاج الذي طُبِّق على العصاب المدغشقري كان قاسياً قليلاً، السيّد مانوني، الذي يملك جواباً لكل شيء، سوف يُثبت لك أن الفظاعات المعروفة الذي يتكلَّم عنها الناس قد تم المبالغة بها بشكل عظيم، أنَّها جميعها اختلاق عُصابي، أنّ التعذيب كان تعذيباً متخيَّلاً طُبِّق من قبل «جلادين متخيَّلين».

بالنسبة للحكومة الفرنسية، التي تظهر نفسها على أنها معتدلة على نحو استثنائي، حيثُ رضيت أن تلقي القبض على النواب المدغشقريين، عندما وُجِبَ عليها التضحية بهم، إذ أرادت أن تحترم قوانين علم النفس الصحية.

أنا لا أبالغ. إنه السيّد مانوني الذي يتكلَّم:

> سيراً على المسارات الكلاسيكية، إنّ هؤلاء المدغشقريين حوَّلوا قديسيهم إلى شهداء، مُخلِّصيهم إلى كبش فداء؛ أرادوا أن يغسلوا خطاياهم المُتخيَّلة بدماء آلهتم. كانوا على الاستعداد، حتى بهذا الثمن، أو بالأحرى فقط بهذا الثمن، لقلب سلوكهم مرة أخرى. وملمحاً من هذه النفسية التابعة سيبدو كالتالي، بما أنّه لا أحد يستطيع أن يخدم سيّدين، أحدهما يجب أن يضحّى به للآخر. السكان الأكثر قلقاً من المستعمرين في تناناريف (Tananarive)، كان لديهم فهم مشوَّش لجوهر هذه النفسية للتضحية، واحتاجوا ضحاياهم. طوّقوا مكتب المفوض السامي، مؤكدين له أنهم إذا وهبوا دماء

بعض الأبرياء، «الجميع سيكون راضياً». هذا الموقف، معيب من وجهة نظر إنسانية، كان مبنياً على ما كان، على العموم، إدراكاً دقيقاً منصفاً للاضطرابات العاطفية التي كان سكان الهضاب العالية يعيشونها.

بوضوح، مجرد خطوة من هذه للعفو عن السفاحين الاستعماريين. «سيكولوجية» السيّد مانوني بقدر ما هي «نزيهة»، بقدر ما هي «حُرّة»، مثل جغرافية السيّد غورو أو لاهوت المُبشِر القس تمبلز!

والشيء المدهش المشترك في ما بينهم، هو المسعى البرجوازي المثابر على اختزال أكبر المشاكل الإنسانية إلى مفاهيم مريحة، فارغة: فكرة عقدة التبعية عند مانوني، الفكرة الأنطولوجية عند القس تمبلز، فكرة «الاستوائية» عند غورو. ماذا حلّ بمصرف الهند الصينية خلال هذا كله؟ ومصرف مدغشقر؟ والسوط؟ والضرائب؟ وحفنة

الأرز للمدغشقري أو للناكيه (*nhaqué*)[22]؟ والشهداء؟ والأبرياء الذين قتلوا؟ والأموال المكوّمة في خزائنكم، أيها السادة؟ لقد تبخروا! اختفوا، اختلطوا، أصبحوا غير مُدرَكين، في مملكة الاستنتاجات الباهتة.

لكن يبقى هناك أمر بائس لهؤلاء السادة. هو أنّ أسيادهم البرجوازيين هم أقل وأقل استجاباً إلى نقاشٍ خادع، ومحكومين أكثر فأكثر بالابتعاد عنهم والتهليل لآخرين أقل مكراً وأكثر وحشيةً. ذلك هو تماماً ما يمنح السيّد إيف فلورين (Yves Florenne) فرصة. وفي الواقع، هنا، توجد عروضه الصغيرة للخدمات، منظمة بعناية على طبق الصحيفة لوموند (*Le Monde*). لا مفاجآت ممكنة. مكفول تماماً، مع جودة مثبتة، على الأقل مختبر تماماً مع محصلات استنتاجية، هنا نجد شكلاً من العنصرية، عنصرية فرنسية لا تزال غير متينة كفاية، إنها لحقيقة ولكنها واعدة. إصغِ للرجل ذاته:

(22) الاسم أطلق على شعوب الهند الصينية من قبل الفرنسيين (تعادلها «غووك» 'gook' في الولايات المتحدة الأميركية) (المترجم إلى اللغة الإنكليزية).

«قارئتنا» (هي معلِّمة كان لديها الجرأة لتناقِض الغضوب السيّد فلورين)، «... متأملةً تلميذتين صغيرتين، هجينتين، لدى المعلّمة إحساس بالفخر تجاه الشعور بأن هناك بعداً نامياً من الاندماج مع عائلتنا الفرنسية... هل سيكون رد فعلها مشابهاً إذا رأت، بالمقابل، شخصاً فرنسياً مندمجاً مع العائلة السوداء (أو الصفراء أو الحمراء، لا يوجد فارق)، الذي يعني أن، تصبح مائعاً، مختفياً؟»

من الواضح أنه بالنسبة لـ السيّد إيف فلورين فإن الدم هو الذي يصنع فرنسا، وأسس الأمة هي بيولوجية: «شعبها، عبقريتها، صنعا منذ ألف عام توازناً قوياً ورقيقاً في الوقت عينه، و... اضطرباتٍ معينة مرعبة لهذا التوازن تناسب التسرب الهائل وغالباً الخطير للدم الخارجي الذي عانت [فرنسا] منه خلال آخر ثلاثين عاماً».

باختصار، التمازج – هو العدو. لا يوجد أزمات اجتماعية! لا يوجد أزمات اقتصادية! كل ما تبقى هو الأزمات العرقية! بالطبع، الإنسانية لا تفقد شيئاً من

هيبتها (نحن في العالم الغربي)، لكن دعنا نفهم بعضنا: «ليس الأمر بأن تفقد نفسها في العالم الإنساني، بدمائها وبروحها؛ إن فرنسا ستكون عالمية، بالمحافظة على نفسها». هذا ما وصلت إليه البرجوازية الفرنسية، بعد خمس سنوات من هزيمة هتلر! وهذا بالتحديد في أنّ عقابها التاريخي يكذب: لتكون محكومةً، بالعودة إليه وكأنها مقادة بالرذيلة، لتمضغ بعد ذلك قيء هتلر.

ولأن السيّد إيف فلورين بعد كل هذا، كان لا يزال يضج بروايات المزارع، «دراميات الأرض»، وحكايات عين الحسود في حين كان، بعين حاسدة أكثر بكثير من البطل الريفي لبعض قصص السحر، هتلر يعلن: «الهدف الأسمى **لدولة-الشعب** هو المحافظة على العناصر الأساسية للعرق الذي، عبر نشر الثقافة، يخلق الجمال والكرامة للإنسانية العليا».

السيّد إيف فلورين يدرك هذا النسب المباشر.
وهو بعيد من أن يكون خجلاً منه.
حسناً. هذا حقه.

وليس من حقنا أن نكون ساخطين تجاه ذلك.

لأنه، في النهاية، يجب أن نسلّم أنفسنا إلى الحتمي ونقول لأنفسنا، مرة وإلى الأبد، أن البرجوازية محكومة أن تصبح كل يوم أكثر نزقاً، أكثر شراسة علناً، أكثر وقاحة، باختصار أكثر همجية؛ إنه لقانون عنيد أنّ كل طبقة متدهورة تجد نفسها تحوّلت إلى وعاء بحيث تطفو فيه كل المياه الوسخة للتاريخ؛ إنّه لقانون كوني أن قبل أن تتلاشى، على كل طبقة أولاً أن تخزي نفسها كلياً، في كل الجبهات، وإنها برؤوسها المدفونة في كومة الروث تنطق تلك المجتمعات المحتضرة بأغاني الرحيل.

في الواقع الملف مُفعَم.

الوحش الذي يسفك دماً ويزرع الموت في الممارسة البسيطة من حيويته - أنت تذكر أنّه، تاريخياً، كان في هذا الشكل لهذا النموذج الأصلي الضار الذي عكس المجتمع الرأسمالي نفسه فيه على أفضل العقول والضمائر، منذ بداية حبوه.

منذ ذلك حين أصبح الحيوان أنيمياً[23]، إنه يفقد شعره، جلده لم يعد لامعاً، لكن بقيت وحشيته، ممزوجة بالسادية. من السهل إلقاء اللوم على روزنبرغ. على يونغر (Jünger) على الأس أس.

(23) المصاب بفقر الدم (المترجم).

ولكن ماذا عن هذا: «كل شيءٍ في هذا العالم يفوح من الجريمة: الصحيفة، الحائط، ملامح الإنسان».

قالها بودلير (Baudelaire)، قبل أن يولد هتلر!

والذي يثبت أن الشر لديه مصدر أعمق.

وإسيدور دوكاس (Isidore Ducasse)، الكونت دو لوترمون (de Lautréamont)[24]!

في هذا الصدد، لقد حان الوقت لتبديد الغلاف

---

(24) إسيدور دوكاس - الاسم كونت لوترمونت هو اسم مستعار - كان رائد السوريالية الذي، كان مجهولاً أثناء حياته الوجيزة (1846-1870) وكان له تأثير كبير على الجيل القادم من الشعراء. وعرف بعمله الوحيد الاستثنائي، أناشيد مالدورور (*Chants de Maldoror*)، نوع من الشعر الملحمي النثري حيث بطله الشيطاني في تمرّدٍ عنفي ضد الله والمجتمع. الحوادث المتقطعة التي يمرّ بها مالدورور هي سلسلة من الرؤى الخياليّة، روحانية وغنائية من حين لآخر، وفي أغلب الأحيان غريبة، جنائزية، وشهوانية، مليئة بالسادية والدموية. العمل ككل لديه حدة الكابوس ويبدو تقريباً وكأنه ينبثق مباشرةً من الوعي الباطني للكاتب (المترجم إلى اللغة الإنكليزية).

حول الفضيحة التي ابتدعت حول أناشيد مالدورور (*Chants de Maldoror*).

بشاعة؟ نيزك أدبي؟ هذيان خيال مريض؟ يدنو، الآن! كم هو ملائم!

في الواقع كان على لوترومونت أن ينظر فقط في العين تماماً إلى الرجل الحديدي المطروق من قبل المجتمع الرأسمالي لكي يلتمس الوحش، الوحش اليومي، بطله.

لا أحد ينكر صدق بالزاك (Balzac).

لكن انتظر لحظة: تصور فوترين (Vautrin)، دعه يعدْ من المناطق الاستوائية، أعطه أجنحة جبرائيل ورعشات الملاريا، فليكن مصحوباً خلال شوارع باريس برفقة مصاصي الدماء الأوروغوانيين والنمل آكل اللحم، وسوف تحصل على مالدورور[25].

---

(25) فوترين، الذي يظهر في الأب غوريو (*Le Père Goriot*) 1834، وروايات أخرى، هو الشخصية الشريرة الرئيسية للكوميديا البشرية (*Comédie humaine*) عند بالزاك. مجرم خبير يعيش تحت زي تاجر سابق، فاسد، عديم الضمير،

الإطار تغيَّر، ولكنه العالم ذاته، الإنسان نفسه، صلب، غير مرن، عديم الضمير، متسامح، إذا ما كان الإنسان حيّاً، بـ «لحم الآخرين».

لأستطرد لبرهة في استطرادي، أؤمن بأن اليوم سيأتي حين، تُجمع كل العناصر معاً، تُحلّل كل المصادر، تُفسَّر كل الظروف، سيكون من الممكن إعطاء أناشيد مالدورور تفسير مادي وتاريخي والذي سيُظهر كلياً الجانب الغير المدرك لهذه الملحمة المسعورة، إنها إدانة عنيدة لشكل محدد جداً من المجتمع، كما أنها لا تستطيع الهروب من العيون الحاذقة حول العام 1865.

قبل ذلك بالطبع، سيكون علينا إزالة التعليقات السحرية والغيبية التي تبهم الطريق؛ إعادة تأسيس الأهمية لبعض الأبيات المهملة – على سبيل المثال، تلك الفقرة الأغرب على الإطلاق، تلك المتعلقة بمنجم القمل،

عازم في سعيه وراء الثروة. مع البصيرة اللامبالية للمجتمع الرأسمالي، فوترين لا يرى نفسه عديم الأخلاق أكثر من البرجوازية المحترمة في عصره (المترجم إلى اللغة الإنكليزية).

بحيث اننا سنوافق أن نرى لا شيء تقريباً إلّا الإدانة للقوة الشريرة للذهب واكتناز المال؛ أن نعيد المشهد البديع إلى مكانه الصحيح من العربة، وأن ننوي ببساطة أن نجد فيها ما فيها، أن ندرك، الصورة المجازية النادرة لمجتمع بحيث أنَّ صاحب الامتياز، يجلس براحة، يرفض أن نتقارب لنقيم غرفة للقادم الجديد. و – قد قيل ذلك من قبل - من يرحب بالطفل الذي رُفض بقسوة؟ الشعب! مثلاً هنا بجامع الخرق. جامع الخرق لبودلير:

متجاهلاً الوشاة، من أتباعه،
يسكب قلبه في مشاريع مجيدة.
يقسم القسم العظيم ويملي قوانين سامية،
يثبط الشرير، يعين الضحايا(26).

ومن ثمّ سيكون مفهوماً، ألن يكون، أن العدو الذي

---

(26) من «نبيذ جامع الخرق» (Le Vin des Chiffoniers) في أزهار الشر (*Les Fleurs du mal*) (المترجم إلى اللغة الإنكليزية).

جعله لترومون العدو، آكل لحوم البشر، مفترس الدماغ «الخالق»، السادي الجالس على «عرش صنع من براز الإنسان والذهب»، المنافق، الفاسق، المتراخي الذي «يأكل خبز الآخرين» والذي تجده من وقت إلى آخر ثملاً حتى الموت، «ثملاً كقملة الفراش التي ابتلعت ثلاث براميل من الدماء أثناء الليل»، سيكون مفهوماً أنه لا يجب على المرء البحث عن ذلك الخالق وراء الغيوم، إنما نحن أكثر ميلاً لنجده في دليل الأعمال التجارية لديفوس (Desfossés) وفي إحدى الهيئات التنفيذية المريحة!

ولكن فليكن ذلك.

فالأخلاقيون لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً بشأن ذلك.

أحب المرء ذلك أم لا، البرجوازية، كطبقة، هي محكومة أن تتحمل المسؤولية عن كل الهمجية في التاريخ، التعذيب في القرون الوسطى ومحاكم التفتيش، تجار الحرب وجاذبية المصلحة الوطنية،

العنصرية والعبودية، باختصار كل ما كانت تحتج عليه بمصطلحاتٍ لا تنسى في الوقت الذي كانت تجسّد التطوّر البشري كطبقة متمرّدة.

الأخلاقيون لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً بشأن ذلك. ثمة قانون لعملية التجرّد التدرجية من الإنسانية، فتبعاً لبرنامج البرجوازية لا - يمكن أن - يوجد إلّا العنف، الفساد، والهمجية.

كدت أنسى الحقد، الكذب، والغرور.

كدت أنسى السيّد روجيه كايوا (Roger Caillois)[27].

حسناً ومن ثم: السيّد كايوا، الذي قد كُلِف منذ زمن سحيق بمهمة تعليم الزمن المتناثر والمُتصدِّع الفكر الصارم والأسلوب الوقور، فلذلك، قد انتقل السيّد كايوا إلى الغضب العظيم.

لماذا؟

---

(27) أنظر روجيه كايوا، 'Illusions à rebours' في *Nouvelle Revue Francaise*، ديسمبر/ كانون الأول ويناير/ كانون الثاني 1955.

بسبب الخيانة العظمى للإثنوغرافيا الغربية التي، مع التدهور البائس بشعورها بالمسؤولية، بقيت تستهلك كل إبداعها الراحل لترفع الشك عن إجمالي فوقية الحضارة الغربية على حساب الحضارات الغرائبية.

والآن في النهاية يأخذ السيّد كايوا مجالاً.

فلدى أوروبا هذه القدرة لخلق مخلِّصين أبطال في أحرج اللحظات.

ومن جهتنا فمن غير المغفور أن لا نذكر السيّد ماسيس (Massis)، الذي، تقريباً في 1927، شرع بصلب نفسه للدفاع عن الغرب.

نريد أن نتأكّد أن مصيراً أفضل قد حُفظ للسيّد كايوا، الذي، ومن أجل الدفاع عن القضية ذاتها، المقدسة، حوّل قلمه إلى خنجر توليدو[28] جيد.

ماذا قال السيّد ماسيس؟ لقد تأسّف لواقع أن «قدر

(28) توليدو بالإسبانية أو طليطلة بالعربية (أثناء الحكم الأندلسي)، هي محافظة تقع في وسط إسبانية، وعرفت بصناعة الأسلحة القتالية وخاصةً السيوف والخناجر(المترجم).

خطاب عن الاستعمار

الحضارة الغربية، وفي الواقع قدر البشر»، أضحى الآن مهدداً؛ أنّ مسعىً يبذل على كل الأصعدة «لمناشدة مخاوفنا، لتحدي المطالب التي خلقت لثقافتنا، للتشكيك بالجزء الأكثر أهمية مما نملك»، وقد أقسم بشن حرب على هؤلاء «المنظرين المشؤومين».

يعرّف السيّد كايوا العدو بشكل غير مختلف. إنهم «المثقفون الأوروبيون» الذين طوال السنوات الخمسين الأخيرة، «بسبب خيبة الأمل المميزة والمرارة»، قد «أنكروا المثل المتنوعة لثقافتهم»، بلا هوادة، والذين من جراء ذلك يغذّون، «خاصةً في أوروبا، الاضطراب الشديد».

إنه هذا الاضطراب، هذا القلق، الذي يقصد السيّد كايوا، من جانبه، أن يضع له نهاية[29].

(29) من المهم أنّه في الوقت الذي كان السيّد كايوا يباشر بواجبه، كانت المجلة البلجيكية الاستعمارية ، مُلهمةً من الحكومة (أوروبا- أفريقيا رقم 6، يناير/ كانون الثاني 1955)، تقوم بالهجوم ذاته تماماً على الإثنوغرافيا: «سابقاً، كان التصوُّر الأساسي للمستعمِر في علاقته مع المستعمَر هي تلك التي

بين المتحضِّر والمتوحش. وبالتالي الاستعمار اتكأ على التسلسل الهرمي، فظ لا شك، لكنه ثابت وواضح». إنها هذه العلاقة الهرمية التي كاتب المقال المتيقِّن السيّد بيرون (Piron)، يتهم الإثنوغرافيا بتدميرها. كما السيّد كايوا، يلوم ميشال ليريس (Michel Leiris) وكلود ليفي-شتراوس (Claude Lévi-Strauss). يوبّخ الأول على كتابته، في كُتيّبه *La Question raciale devant la science moderne*: «أنه من الصبيانية أن نحاول أن نضع هرمية للثقافة». والأخير على مهاجمته «الارتقاء المغلوط»، لأنها «تحاول أن تقمع تنوع الثقافات، باعتبارها مراحل في تطوّر وحيد والتي، تبدأ من النقطة ذاتها، يجب أن تتقارب تجاه الهدف ذاته». يأتي ميرسيا إلياد (Mircea Eliade) بتناول مختلف من خلال تجرؤه على أن يكتب التالي: «الأوروبي لم يعد يوجد أمامه سكان أصلانيون، إنما محاورون. من الجيد أن تعرف كيف تبدأ الحوار؛ لا مفر من الإدراك أنه لا يوجد حل بالاستمرار بين ما يدعى بالبدائي أو العالم المُتخلِّف والعالم الغربي الحديث». وأخيراً، وذلك لأجل المساواتية المفرطة، التي يأخذها المفكرون الأميركيون على عاتقهم لمرّة واحدة - أوتو كلاينبرغ (Otto Klineberg)، بروفسور علم النفس في جامعة كولومبيا، بعد إعلانه: «إنه خطأ أساسي أن نعتبر الثقافات الأخرى كثقافة دونية بالنسبة لثقافتنا فقط لأنهم مختلفين». حتماً السيّد كايوا برفقة جيِّدة.

وفي الواقع، لا توجد شخصية منذ الرجل الإنكليزي للحكم الفيكتوري قد مسحت التاريخ، بضميرٍ أكثر سكوناً وأقل ضبابيةً، بالريب.

نظريته؟ تملك فضيلة البساطة.

بأنّ الغرب قد اخترع العلم، أنّ الغرب هو وحده يعلم كيف يفكر؛ أن على حدود العالم الغربي هناك تبدأ المملكة الظلامية للفكر البدائي، والتي، هيمن عليها مفهوم المشاركة، العاجزة عن المنطق، وهي المثال الحي على الفكر المختل.

عند هذه النقطة يستطيع المرء أن يشير بالبدء. يستطيع المرء أن يذكِّر السيّد كايوا أنّ قانون المشاركة الشهير المختلق من قبل ليفي-بروول (Lévy-Bruhl)، قد رُفض من قبل ليفي-بروول نفسه؛ أن عند عشيّة أفول حياته أعلن للعالم أنه كان على خطأ في «محاولة تعريف الخاصية، التي كانت محددة للعقلية البدائية حتى الآن كمنطق أخذ به»؛ أنّه، على العكس، لقد أصبح مقتنعاً أن «هذه العقول لا تختلف عن عقولنا إطلاقاً من وجهة

نظر المنطق... لذلك، هم لا يقدرون على تحمل أي تناقض رسمي أكثر مما نستطيع... لذلك، هم يرفضون كما نفعل، بنوع من الاستجابة الذهنية، ما هو مستحيل منطقياً[30]».

مضيعة للوقت! يعتبر السيّد كايوا أن التصويب باطل. بالنسبة للسيّد كايوا، ليفي بروول الحقيقي هو فقط ليفي-بروول الذي يقول إنَّ الإنسان البدائي هو من يتكلّم الهراء بحماس.

بالطبع، يبقى هناك بعض الوقائع الصغيرة التي تقاوم هذه النظرية. ليعلم، أنّ علم الحساب والهندسة ابتُكر من قبل المصريين. ليعلم، أنّ علم الفلك اكتُشِف من قبل الأشوريين. ليعلم، أنّ علم الكيمياء وُلِد بين العرب. ليعلم، أن العقلانية في الإسلام ظهرت في الوقت الذي عانى الفكر الغربي بشراسة من الملامح ما قبل المنطقية. لكن سرعان ما وضع السيّد كايوا

(30) *Les Carnets de Lucien Lévy-Bruhl*, Presses Universitaires de France, 1949.

هذه التفاصيل الوقحة في مكانها، بما أنّه المبدأ الصارم القائل «اكتشافٌ لا يناسب الجميع» هو، تماماً، التفصيل الوحيد، الذي يجب أن يقال، لا شيء غير يذكر.

كما تستطيع أن تتخيّل، مرة واحدة بجانب بداية جيدة كهذه، أن السيّد كايوا لا يتوقف نصف الطريق.

مالك لعلم تابع، سيدّعي علم الأخلاق أيضاً.

فكر بذلك فقط! ألم يأكل السيّد كايوا أحداً على الإطلاق! ألم يحلم أبداً بالقضاء على مريض! ألم يحدث أبداً للسيّد كايوا أن قصّر أيام والديه المعمرين! حسناً، هناك تجدها، فوقية الغرب: «نظام الحياة الذي يحاول أن يؤكد أن الذات الآدمية محترمة بما فيه الكفاية إلى حدٍ أنه لا يعتبر من الطبيعي أن نستبعِد المسن والعاجز».

النتيجة حتمية: بالمقارنة مع أكلة لحوم البشر، مُقطعي الأوصال، وسلالاتٍ أخرى أدنى، أوروبا والغرب هما اللذان يجسدان الاحترام للكرامة البشرية.

لكن دعنا ننتقل، وبسرعة، لكي لا تجول أفكارنا نحو الجزائر، المغرب، وأماكن أخرى حيث، وأنا أكتب

هذه الكلمات الحقيقية، العديد من أبناء الغرب البواسل، في الأقبية شبه المظلمة، يغدقون على إخوانهم الأفارقة الدونيين، بهكذا اهتمامٍ دؤوب، تلك البصمات الأصلية من الاحترام للكرامة الإنسانية المسماة، بمصطلحات تقنية، «الصدمة الكهربائية»، «حوض الاستحمام»، و«راس القنينة».

دعنا نتقدم بسرعة: لم يصل السيّد كايوا بعد إلى نهاية لائحة إنجازاته المعلّقة. فبعد الفوقية العلمية والفوقية الأخلاقية تأتي الفوقية الدينية.

هنا، السيّد كايوا يقظ بأن لا يُخدع بالجاه الفارغ للشرق. آسيا، أم الآلهة، ربما. إنما على كل حال، أوروبا سيّدة الطقوس. وانظر كم هي مذهلة: من ناحية – خارج أوروبا – نمط طقوس الفودو (voodoo)، مع كل «تنكريتهم السخيفة، هيجانهم الجماعي، كحوليتهم الجامحة، استغلالهم الفظ للحماس البسيط»، ومن الناحية الأخرى – داخل أوروبا – هذه القيم الأصلية التي كان شاتوبريان (Chateaubriand) يحتفل بها

في ذلك الحين في كتابه عبقرية المسيحية (*Génie du christianisme*): «العقائد والأسـرار في الديانة الكاثوليكية، طقسها، الرمزية في نحّاتيها والمجد لأناشيد القداس».

في الختام، سبب أخير للرضا:

قال غوبينو (Gobineau): «التاريخ هو أبيض فقط».

في المقابل، يلاحظ، السيّد كايوا: «الإثنوغرافيا هو أبيض فقط». إنه الغرب الذي يدرس إثنوغرافية الآخرين، وليس الآخرون الذين يدرسون إثنوغرافية الغرب.

سبباً للابتهاج الأعظم، أليس كذلك؟

والمتاحف التي يفتخر بها السيّد كايوا جداً، ألا يخطر بباله لدقيقة أن، كل الأمور المعتبرة، كان من الأفضل أن لا يحتاجها؛ أنّه كان يمكن لأوروبا أن تنجز عملاً أفضل للحضارات غير الأوروبية بجانبها، بتركها حية، حيوية ومزدهرة، سالمة وليست مبتورة؛ أنه كان من الأفضل أن تدعها تنمو وتحقق نفسها عوضاً عن المثول أمام إعجابنا، على حسب الأصول، بأجزائها

الميتة والمبعثرة؛ أنه في جميع الأحوال، المتحف في حد ذاته هو لا شيء؛ أنه لا يعني شيئاً، أنه لا يستطيع أن يقول شيئاً، عندما ينخُر الإرضاء الذاتي الأنيق الأعيُن، عندما يُذبِل القلب احتقار سري تجاه الآخرين، عندما تجفف العنصرية، سواء اعتُرِف بها أم لا، التعاطف؛ أنه لا يعني شيئاً إذا كان غرضه الوحيد هو إشباع لذّات التكبر؛ أنه بعد كل هذا، فإن النزاهة المعاصرة للقديس لويي (Louis)، الذي حارب الإسلام واحترمه، كانت تملك فرصة أفضل لمعرفته أكثر من معاصرينا (وحتى لو أن لديهم معرفة سطحية للأدب الإثنوغرافي)، الذين يحتقرونه.

كلا، بمعايير المعرفة كل متاحف العالم لن تزن بمقدار شرارة واحدة من التعاطف الإنساني.

وما هي النتيجة من كل ذلك؟

لنكن منصفين؛ فإن السيّد كايوا معتدل.

فقد أسس الفوقية الغربية في كل الميادين، وبذلك أعاد تأسيس هرمية شاملة وقيّمة جداً، السيّد كايوا

يمنح برهاناً مباشراً لفوقيته باستنتاجه أن لا أحد يجب أن يباد. معه الزنوج متأكدون بأنهم لن يشنقوا؛ اليهود، لن يطعموا نيران جديدة. هناك شيء واحد فقط: من المهم أن يكون مفهوماً بوضوح أنّ الزنوج، اليهود، والأستراليين [الأصلانيين] ليسوا مدينين بهذا التسامح بسبب مزاياهم الخاصة بهم، وإنما بسبب شهامة السيّد كايوا؛ ليس بسبب إملاءات العلم، الذي يستطيع أن يقدم حقائق زائلة فقط، وإنما بسبب فرمان ضمير السيّد كايوا، والذي لا يكون إلا مطلقاً؛ أنّ لا شروط لهذا التسامح، لا ضمانات، باستثناء شعور السيّد كايوا بالواجب تجاه نفسه.

ربما سيعلن العلم يوماً أنّ الثقافات المتخلّفة والشعوب المعوّقة التي تشكّل المعوقات والأوزان الزائدة في مسار الإنسانية يجب أن تُزال، ولكننا متأكدون أن الضمير المتغيّر للسيّد كايوا، في لحظة من ضميرٍ صافٍ إلى ضميرٍ نبيل، سوف يكبح يد الجلاد ويصرّح لك العافية (*salvus sis*).

بحيث نحن مدينون للملحوظة المثمرة التالية:

بالنسبة لي، فإن مسألة المساواة بين الأعراق، الشعوب، أو الثقافات لها معنى فقط عندما نتكلّم عن المساواة في القانون، ليس عن المساواة في الواقع. وبالطريقة ذاتها، الأناس المكفوفون، المبتورون، المرضى، الحمقى، الجهلة، أو الفقراء (يصعب على المرء أن يكون ألطف مع غير الغربي) ليسوا متساوين تباعاً، بالمعنى المادي للكلمة، مع أولئك الذين هم أقوياء، ثاقبو النظر، أصحاء، أشداء، مدركون، مثقفون، أو الأغنياء. الأخير لديه قـدراتٍ أعظم والتي، بالمناسبة، لا تمنحهم حقوقاً أكثر وإنما واجباتٍ أكثر... وبالمثل، سواء لأسباب بيولوجية أو تاريخية، يوجد في الوقت الحالي فوارق في المستوى، السلطة، والقيمة بين مختلف الثقافات. هذه الفوارق توجب اللامساواة في الواقع. إنها قطعاً لا تبرّر اللامساواة في الحقوق لمصلحة ما يسمى الشعوب المتفوقة، كما كانت العنصرية ستفعل. بدلاً من ذلك، إنها تمنحهم مهماتٍ إضافية ومسؤولية بالغة.

مهمات إضافية؟ وأي مهمات، إن لم تكن مهمات السيطرة على العالم؟

مسؤولية بالغة؟ وما هي، إن لم تكن مسؤولية العالم؟

وكايبوا–الأطلس يزرع بإحسانٍ أقدامه وسط الغبار ويرفع مرّةً أخرى على أكتافه الثابتة عبء الرجل الأبيض الحتمية.

على القارئ أن يعذرني لأنني تحدّثت عن السيّد كايبوا بهذا القدر. وذلك ليس لأني أبالغ في تقديره بأي درجة مهما كان جوهر القيمة «لفلسفته» - سيكون القارئ قد أصبح قادراً على الحكم إلى أي حد على المرء أن يأخذ على محمل الجد مفكراً كان، أثناء ادعائه تفانيه بالمنطق الصارم، يضحي عن طيب خاطر لأجل التعصب ويتمرغ بشهوانية بالابتذال. ولكن آراءه تستحق اهتماماً خاصاً لأنها مهمة.

مهمة لماذا؟

لنفسية أُلوف مؤلَّفة من الأوروبيين أو، لنكن دقيقين للغاية، لنفسية البرجوازية الصغيرة الغربية.

مهمة لماذا؟

لهذا: إنّه في الوقت نفسه أثناء نطقه بهذه الكلمة، لم يكن الغرب مطلقاً أعجز من الآن من أن يعيش إنسانية حقيقية - إنسانية صنعت لمقياس العالم.

إحدى القيَم المخترعة من قبل البورجوازية في أوقاتٍ سابقة وعوِّمَت في جميع الأنحاء هي الإنسان - وقد رأينا ما نتج عن ذلك. والأخرى هي الدولة.

إنه لواقع: الدولة هي نظرية برجوازية.

تماماً: لكن إذا أدرتُ انتباهي من الإنسان إلى الدوَل، ألاحظ، أن هنا أيضاً يوجد خطر كبير؛ أن المشروع الاستعماري بالنسبة للعالم الحديث هو الإمبراطورية الرومانية للعالم القديم: مقدمة **الكارثة** ونذير **الفاجعة**. هيا، الآن! الهنود ذُبحوا، العالم الإسلامي استُنزف من نفسه، العالم الصيني دُنِس وشوِّه على مدى قرنٍ تقريباً؛ العالم الزنجي جُرِّدَ من الأهلية؛ أصوات هائلة هُدأت إلى الأبد؛ منازل بُعثرت للريح؛ كل هذا الركام، كل هذا

الضياع، اختزل الإنسانية بخطابٍ أحادي، وتظن أن هذا ليس له ثمن؟ في الحقيقة إنّ هذا النهج لا يستطيع إلّا أن يجلب الخراب إلى أوروبا نفسها، وأوروبا إن لم تكن حذرة، سوف تهلك من الفراغ الذي خلقته حول نفسها.

ظنوا أنهم يذبحون الهنود فقط، أو الهندوس، أو سكان جزر البحر الجنوبي، أو الأفارقة. في الواقع لقد أطيحوا، واحداً تلو الآخر، خلف الحصون حيث استطاعت الحضارة الأوروبية أن تنمو بحرية.

أعرف كيف تكون الأمثلة التاريخية السفسطائية، تلك التي سأعرضها بالتحديد. ومع ذلك إسمحوا لي أن أقتبس صفحة من إدغار كينيه (Edgar Quinet) لأجل العناصر غير التافهة من الحقيقة والتي تستحق التأمل.

ها هي:

> يسأل الناس لماذا البربرية خرجت كلها مرّة واحدة في العالم القديم. أعتقد أنني أعرف الإجابة. من المدهش أن سبباً بسيطاً كهذا ليس واضحاً للجميع. إنّ منظومة الحضارة القديمة

> كانت مؤلفة من عدد محدد من الشعوب، للبلاد التي، بالرغم من أنها بدت كأنها عدوة، أو حتى كانت جاهلة ببعضها بعضاً، فقد حمت، دعمت، وحرست بعضها بعضاً. عندما تعهدت الإمبراطورية الرومانية التوسعية أن تقهر وتدمر هذه المجموعات من الشعوب، اعتقد السوفسطائيون المبهورون أنهم رأوا، في نهاية هذا الطريق، الإنسانية منتصرة في روما. لقد تكلموا عن وحدة الروح الإنسانية؛ كان ذلك مجرد حلم. حدث أنّ هذه الشعوب كانت الحصون العديدة التي تحمي روما نفسها... وهكذا فروما، أثناء زحفها الانتصاري المزعوم تجاه حضارة واحدة، قد دمرت، واحدة تلو الأخرى: قرطاج، مصر، إغريقيا، يهودا، بلاد فارس، داقية (Dacia)[31]، الغول أمام جبال الألب (Cisalpine)[32] والغول

---

(31) داقية أو داكيا وتتمثل حالياً برومانيا ومولدوفيا وبعض أجزاء من صربيا، وبلغاريا، وهنغاريا، وأوكرانيا (المترجم).

(32) شمال إيطاليا (المترجم).

وراء جبال الألب (Transalpine)[33]، حدث أنها ابتلعت بنفسها الخنادق التي حمتها من المحيط الإنساني الذي كان في طريق الهلاك. القيصر النبيل، بسحقه الغولين [وراء وأمام جبال الألب]، فقد مهّد الطريق للجرمان. مجتمعات كثيرة، لغات كثيرة مسحت، مدن كثيرة، حقوق، منازل تلاشت، محدثةً فراغاً حول روما، وفي هذه الأماكن التي لم يغزها البربر، ولدت البربرية تلقائياً. الغال المقهور تحول إلى الباغود (Bagaudes). وبالتالي الأفول العنفي، الإفناء التدريجي لكل مدينة بذاتها، أدى إلى تفتت الحضارة القديمة. ذلك الصرح الاجتماعي كان مدعوماً بالشعوب المختلفة كأنها أعمدة كثيرة مختلفة من الرخام أو الرخام السماقي.

عندها، لأجل الهتاف لحكماء ذلك العصر، كل من هذه الأعمدة قد دمرت، أصبح الصرح منهاراً؛ ولا يزال حكماء عصرنا يحاولون فهم كيف قد حدث خراب عظيم كهذا في لحظة ما.

(33) جنوب فرنسا (المترجم).

والآن أسأل: ماذا فعلت البرجوازية الأوروبية غير ذلك؟ لقد قوّضت الحضارات، دمّرت البلدان، أفسدت القوميات، استأصلت «جذور التنوّع». لم يعد يوجد خنادق بعد، لم يعد يوجد حصون. حان زمن البربري. البربري العصري. الزمن الأميركي. عنف، إسراف، هدر، المذهب التجاري، خداع، امتثال، غباء، بذاءة، اضطراب.

في 1913، كتب السفير بايج (Page) إلى ويلسون (Wilson):

«مستقبل العالم ينتمي إلينا... الآن ماذا سنفعل بقيادة العالم عما قريب عندما تسقط في ايدينا بوضوح؟»

وفي 1914: «ماذا سنفعل بهذه الإنكلترا وهذه الإمبراطورية، عما قريب، عندما تضع القوى الاقتصادية بوضوح قيادة السباق في أيدينا؟»

هذه الإمبراطورية... والأخريات...

وفي الواقع، ألا ترى كيف رفع هؤلاء السادة بشكل بالغ، شعار مناهضة الاستعمار؟

«معونة للبلدان المحرومة»، قال ترومان

(Truman). «لقد مضى عصر الاستعمار القديم». وهذا أيضاً ترومان.

ما يعني أن المالية الأميركية العليا تعتبر أن الوقت قد حان لغزو كل مستعمرة في العالم. إذاً، يا أصدقائي الأعزاء، هنا عليكم أن تكونوا حذرين!

أعرف أنّ بعضاً منكم، مشمئز من أوروبا، من كل هذه الفوضى الفظيعة التي لم تشهدوها بخيار، يتجه - آه! ليس بعدد كبير - نحو أميركا ويعتاد على النظر إلى تلك الدولة كأنها محرر ممكن.

« ما هذا العطاء الإلهي!» تعتقدون.

«الجرّافات! الاستثمارات الضخمة لرأس المال! الطرقات! المرافئ!»

«والعنصرية الأميركية!»

«فيلكن؟ العنصرية الأوروبية في المستعمرات عوّدتنا عليها!»

وها نحن مستعدون ان ندخل خطر اليانكي.

لذا، مرّة أخرى، كونوا حذرين!

الهيمنة الأميركية - الهيمنة الوحيدة التي لا يستطيع المرء أن يشفى منها. أعني الهيمنة الوحيدة التي لا يمكن أن يشفى المرء منها من دون خدش.

وبما أنكم تتكلمون عن المصانع والصناعات، ألا ترون المصنع الكبير يبصق هيستيرياً رماده في قلب غاباتنا أو في عمق الأدغال، مصنع لإنتاج الأذناب؛ ألا ترون المكننة الهائلة، مكننة الإنسان؛ الاغتصاب الهائل لكل شيء حميم غير مدمر غير مدنس والذي هو مسلوب كما هو حالنا، روحنا الإنسانية لا تزال تحاول أن تنجو من؛ الآلة، أجل، ألم ترَ ذلك من قبل، الآلة للسحق، للجرش، للحط من الشعوب؟

لذلك فالخطر هائل.

ما لم تباشر أوروبا الغربية بمبادرتها الخاصة لسياسة القوميات، في أفريقيا، في جزر البحر الجنوبي، في مدغشقر (التي هي، على أبواب جنوب أفريقيا)، في جزر الهند الغربية (التي هي، على أبواب أميريكا)، سياسة جديدة تقوم على احترام الشعوب والثقافات - بل أكثر -

(Truman). «لقد مضى عصر الاستعمار القديم». وهذا أيضاً ترومان.

ما يعني أن المالية الأميركية العليا تعتبر أن الوقت قد حان لغزو كل مستعمرة في العالم. إذاً، يا أصدقائي الأعزاء، هنا عليكم أن تكونوا حذرين!

أعرف أنّ بعضاً منكم، مشمئز من أوروبا، من كل هذه الفوضى الفظيعة التي لم تشهدوها بخيار، يتجه - أه! ليس بعدد كبير - نحو أميركا ويعتاد على النظر إلى تلك الدولة كأنها محرر ممكن.

« ما هذا العطاء الإلهي!» تعتقدون.

«الجرّافات! الاستثمارات الضخمة لرأس المال! الطرقات! المرافئ!»

«والعنصرية الأميركية!»

«فيلكن؟ العنصرية الأوروبية في المستعمرات عوّدتنا عليها!»

وها نحن مستعدون ان ندخل خطر اليانكي.

لذا، مرّة أخرى، كونوا حذرين!

الهيمنة الأميركية - الهيمنة الوحيدة التي لا يستطيع المرء أن يشفى منها. أعني الهيمنة الوحيدة التي لا يمكن أن يشفى المرء منها من دون خدش.

وبما أنكم تتكلمون عن المصانع والصناعات، ألا ترون المصنع الكبير يبصق هيستيرياً رماده في قلب غاباتنا أو في عمق الأدغال، مصنع لإنتاج الأذناب؛ ألا ترون المكننة الهائلة، مكننة الإنسان؛ الاغتصاب الهائل لكل شيء حميم غير مدمر غير مدنس والذي هو مسلوب كما هو حالنا، روحنا الإنسانية لا تزال تحاول أن تنجو من؛ الآلة، أجل، ألم ترَ ذلك من قبل، الآلة للسحق، للجرش، للحط من الشعوب؟

لذلك فالخطر هائل.

ما لم تباشر أوروبا الغربية بمبادرتها الخاصة لسياسة القوميات، في أفريقيا، في جزر البحر الجنوبي، في مدغشقر (التي هي، على أبواب جنوب أفريقيا)، في جزر الهند الغربية (التي هي، على أبواب أميريكا)، سياسة جديدة تقوم على احترام الشعوب والثقافات - بل أكثر -

ما لم تحفِّز أوروبا الثقافات المحتضرة أو أنشأت ثقافاتٍ جديدة، ما لم تصبح المنبه للبلدان والحضارات (هذا يقال من دون الأخذ بالاعتبار المقاومة الرائعة للشعوب المستعمَرة المتجسِّدة حالياً في فيتنام، وإنما أيضاً في أفريقيا التجمع الديمقراطي الأفريقي Rassemblement Démocratique Africain[34])، فأوروبا ستحرم نفسها من فرصتها الأخيرة، وبأيديها، ستضع فوق نفسها وشاح الظلام المميت.

وباختصار فإن خلاص أوروبا ليس مسألة ثورة بالأدوات. إنها مسألة الثورة – التي، إلى أن يحين الوقت

---

(34) التجمع الديمقراطي الأفريقي، كان تحالفاً بين مختلف الأحزاب السياسية في البلدان والأقاليم التي كانت مستعمرة من قبل فرنسا. وقد تم تأسيسها في مالي1946 لتقوية التمثيل الأفريقي في المجلس الوطني الفرنسي. تبنى جميع الأعضاء فكرة الوحدة الأفريقية بالرغم من مختلف اتجاهاتهم السياسية، حيث كانت أهداف التجمع هي الوحدة الأفريقية، والاعتزاز بالثقافة والحضارة الأفريقية، وحق وتقرير المصير. إلا إنه انقسم التجمع حول مسألة الاستقلال الكامل من فرنسا او الفدرلة (المترجم).

الذي يوجد فيه مجتمع غير طبقي، والذي سوف يخلف الطغيان الضيِّق للبرجوازية غير الإنسانية لأكثرية الطبقة الوحيدة التي لا تزال لديها مهمة كونية، لأنها عانت بدمها من كل أخطاء التاريخ، من كل الأخطاء الكونية: البروليتاريا.



ملاحظة ثالثة

الجرأة في الخطاب

قراءة خطاب عن الاستعمار هي كحركة رمي القنبلة. كل سطر ينفجر بعيداً عن تذوّت القهر وخارجاً بهجومٍ ضد الذي يستعمِر. تبدو اللغة مندفعةً، محترقة خارج نفسها، باتجاه ما لا يمكن حشوه داخل الفرمان الإملائي للجملة.

سيزير الرجل الأسود يعرّي النازية كوحشية احتضنت من قبل الاستعمار، خارجةً من الذات الأوروبية ضد نفسها. يكاد لا يترك زاوية للإدارة والعقلية الاستعمارية بسلام قذر. يشرّح الصناعة الاستعمارية والطريقة التي تقدم بها العالم من صحفي، وشاعر، وأكاديمي، إلى رجال الدين، كما يشرِّح الطريقة التي

يشعر بها العالم؛ الإرساليات غير المؤذية تبدو كجندي مضطرب في حين يبدو الصحفي المحايـد كمُروِّج.

لا يروي سيزير حكاية الاستعمار معدداً وواصفاً مرة أخرى فظاعات ارتُكبت من قبل نسخة كئيبة للكائن البشري. تقدم اللغة لمحات من العنف الاستعماري، بهدف تحليل العقليات المدمنة التي تطبِّعها وتعريتها. فهو يرفض أفخاخ الشرح والتبرير، فهذا ليس حواراً. لا يتوسّل للمستعمِر من أجل «شعبه»، ولا يعرض أي مساومات. لا وجود لأي طاولة مفاوضات. على أوروبا أن تكبح مضايقاتها. عليها أن تتعلّم كيف تعيد تأهيل إنتاجها الثقافي من الإدمان على الغرائز-على-السيطرة. يبيِّن سيزير الخطابات الاستعمارية وكتاباتها المصابة بوهم مركزيتهم (أناهم) واستبدادهم. ذهان أدبي للسلطة.

كان سيزير جزءاً من حركة هدفت إلى إزاحة هذا التفوّق الوهمي؛ هي أقرب إلى مجموعة أفكار فنية وآليات سياسية، كانت الزنوجية (Negritude) في الإنتاج

الثقافي تدور حول خطط الهروب بعيداً من الانحلالات العامة والخاصة للاستعمار والعبودية، صانعةً التعبير الأسود المقاوم؛ مكافحةً أثناء البحث عن الجديد من ناحية النمط والمحتوى. تأتي الكثير من الانفجارات في هذا النص عندما يُرغِم سيزير الجمل بالشعرية؛ مدفوعةً ضد المقالة والمحاضرة كأنواع أساليب مستوطنة.

الصفاقة: الترياق أمام محاولات السلطة التي تجعلنا نذوّت الدونية هو عملية وقحة في ضوء النهار المفترى عليه. في الخطاب عن الاستعمار يعارك الكاتب الصناعة لصنع الحقيقة والتلاعب. ينحت مكاناً ليعبُر منه ومن ثمّ ليحارب. فهو وبقية الرفاق، حفروه من الغضب، من الأجساد المدمّرة والخُبرات الاستعمارية، منحدراً من شعوبٍ خُطفوا من حياتهم.

في روايـة كاربنتاريا (*Carpentaria*)، تؤلِّف ألكسيس رايت (Alexis Wright) وشخصياتها الثورية عملية وقحة أخرى. لقد نسفوا أكبر منجم في العالم. إنه المجمّع-المُعسكر للحديد الخام للتنجيم، مجتاحاً

وسارقاً، ومستفزاً الناس والأرض. إنهم الشعوب الأصلانية الذين خُطفوا من حياتهم عندما بدأ قبطان بريطانيا «العظمى» كوك (Captain Cook) غزو القارة واستيطانها منذ أكثر من 200 عام مطلقاً عليها اسم أوستراليا. إنهم موزي (Mozzie) ورفاقه - شيوخاً وشباناً متجولين، داعين إلى تقرير المصير والتمسك بالتقاليد الروحانية - الذين أخذوا المسألة على عاتقهم.

العملية حصلت وسط سرديات مكثفة، وباستخدامٍ للإنكليزية تتدخل مباشرةً في الأفكار الشعبية للمستوطن عن السود في أوستراليا. تنحل بلدة المستوطن من رايت خلال إدراكاتٍ وآراءٍ سوداء معينة. يدير البيض البلدة، حيث تعيش العائلات الأصلانية المتخاصمة في الهوامش، يبتكرون الاستخطاطيات(*) بالحنكة والميَز المطلوبة للنجاة من السلب والفقر المفروض من قبل الدولة.

(*) الاستراتيجيات (المترجم).

تُخضع رايت الوقت لمصلحة شخصياتها. تُجبِر القراءة بالتجوال مع الرحلات المطوّلة في البحر؛ ليس للاستطلاع والاستكشاف، وإنما لتدفع الشخصيات لأن يعيشوا بحواسهم وبمعارفهم الثقافية. فهناك رحلات طويلة مع موزي ورفاقه في الأرض؛ متقلّبةً باطراد، مليئة بالتفاصيل الضرورية لفهم الأحداث اللاحقة. ثمّ تنغمس بطمس المنجم وتحطيم البلدة عبر الإعصار (بعد سحق وحشي للشاب الأسود كفين Kevin وتعذيب أقربائه وموتهم في السجن). لكن قبل الإعصار، «رأت مجموعة البريكل البوش أرواح الخلق الضخمة والقوية للأسلاف تحتل الأرض والبحر وتسير خلال البلدة...» (ص 59).

العالم لا يقطّع جراحياً إلى بحر، ومستنقع، وكهف، ومغارة، وجبل. تعمل رايت، من المواقع المفرّدة: جزيرة من حطام وقمامة الرأسمالية في البحر، انزلاق الطين من خلال روعة الأنهر، أو تحت حافة الصخرة حيث يختبئ الطفل مراقباً أهله يواجهون الموت البارد، الأبيض. «يحارب عقله جسده المرتعش إلى أن يصبح جامداً

كالصخرة، والتربة، والعصور القديمة، والظلمة، إلى أن يتوقّف نفسه ويصبح غير مرئي» (ص 102).

ويل (Will)، الثائر العبقري المتطرف الشعبي، هو حفيد هذا الطفل. «لقد عرف كيف يذوب في الريف. في امتدادٍ مسطوح من طبقة الطين (تحت التربة)، استطاع ويل أن يمدد نفسه خلف كتل العشب المصفرّة فاستحال إلى وحل مكعّك طوال بعد الظهر في حين مشت فرقة البحث فوقه تماماً» (ص 288). فهناك من هو بـ«...خَلق الأسلاف محملاً بحواسهم...» (ص 27)، في حين يمكن الإحساس بطبقة الطين تتنفس «تماماً داخل نخاع عظامك» (ص 372).

الأرض ليست جزءاً من أسطورة في النص. فلا تغرق في الثنائية الغربية بين الحقيقة والأسطورة، الطبيعة والحضارة. هذا لا يعني أنّ الكائن البشري والطبيعة «واحد». فهناك فرق؛ لحظات مذهلة في تحرك القدرات وترتيبات القوة. فهناك تعاون وهناك حرب. هناك عتاب، راحة، إغراء، ورفض، فضول، منافسة، ملاذٍ وحب. تظهر تعدد الحدّة في التفاعلات، في حين أنّ ذلك السؤال

المبنور للفلسفة الغربية عن الإنسان قاهراً الطبيعة يتحوّل إلى فضلة.

يتجه عمل رايت باتجاه استخطاطية القوة السوداء التي تنسق بين الثقافي، والتقليدي، والبيئي كسياسي. هناك كفاح تولّد عبر هذه المنصة الأدبية حيث أعلنت الكاتبة، من خلال اللغة، الحق غير القابل للتصرف للسود في السخرية من الذات أو في حب الذات، أو في الكره، في التأثر أو في الرد، في الاقتتال مع بعضهم بعضاً أثناء الدفاع عن بعضهم. الكلية هي من التعدد. فصفاقة الأدب تخلق حقائق من خيارها الذاتي - حرية كافحت وسُحِبت بعيداً من النظرة البيضاء واللغة الرسمية.

الفوقية الأخرى

تفكيك العنصرية كطريقة مريضة هي المضمون في الخطاب عن الاستعمار، في حين أن النمط يعارك بالجسد، متخطياً الحواجز التي صُنعت لتبقيه تابعاً للعقل. ربما قد حاول، لكنه لم يفلح أبداً بالشكل الكافي ليكون ذكورياً بالكلمات. فالجسد خلال الطريق كله،

يخلق منافذ حسية، مستحيل أن تتفق مع أسطورة فوقية العقل الذكوري.

يبقى أنّ الوعي في هذا العراك كأنثى، أو أنثوية هو غائب. يستخدم سيزير اللغة ليعرّي العديد من نواحي الاستعمار، ما عدا طبيعته الكارهة للمرأة والطريقة التي يستخدم القوى الأبوية ضد النساء والرجال المستعمَرين. إذا كانت النازية النتيجة الطبيعية للاستعمار، فإن الاستعمار نفسه هو امتداد للأبوية الكونية وأوروبا المعادية للأنثى. فسيزير لم يصل إلى ما تشير إليه لغته.

في عيونهم كانت تراقب الله، كافحت جايني (Janie) والكاتبة زورا نيل هرستون (Zora Neale Hurston) لأجل الجرأة المطلوبة للتحرير، فارضةً طبقاتٍ حميمة من السرد عاكسةً كيف أنّ الفوقية العنصرية هي أيضاً الفوقية الذكورية. فالعبودية للسود في الجنوب قد انتهت رسمياً، لكن ليس تماماً - هذا ما قالته جدة جايني. فالمرأة السوداء تحمل الحمولة المفروضة عليها من الرجل الأبيض إلى الرجل الأسود. ليست جايني البطلة المطلوبة للاستعراضات البسيطة: «امرأة تحمل بندقية». لا تقرأ الكتب، «...فلم تعلم أنها

كانت العالم وأنّ الجنة تبخّرت إلى قطرة» (ص 72). هذه القطرة التي أجبرت على العيش في أسفل الهرمية، أصبحت مركز العالم.

بعد أن صُفِعت من قبل زوجها، أوقفت جايني واجباتها في البيت وأخذت وقتاً للتفكير. «لديها الآن داخلاً وخارجاً، وفجأة أصبحت تعرف كيف لا تمزج بينهما» (ص 68). العنف الانعزالي المشتق من الأبوية أجبرها على استخطاط الذات إلى اثنتين؛ واحدةً لها والأخرى للخارج. تضع على رأسها وشاحاً، الذي أجبرها على تغطية شعرها، وفستاناً نظيفاً «للخارج» لتذهب إلى العمل عنده في المخزن.

ثمّ عندما تصل، وفي ردٍ على حديثٍ يومي معادٍ للمرأة، تشعل جايني هجوماً عاماً على عجرفة الرجال.

«...بتعرفوش ربع لمفكرين حالكو بتعرفوه عنا. كتير سهل عليكوا تفكروا حالكو الله لمّا ما يكون في عندكو شي تفششوا في غير النسوان والأكل» (ص 71).

وفي التضامن مع جايني، حافظت اللغة على

الجدلية السوداء، رافضةً لغة «صحيحة» للرواية. فاللغة تقطع الخارج والداخل من عوالم جايني، أثناء البحث عن العدالة في ذلك الاختلاف والرفض للخنوع. وفي الوقت ذاته تعبر الفوقية البيضاء في الشمال الأميركي حياة البلدة السوداء الجديدة من دون الحاجة إلى الخارج - المرأة أو الرجل الأبيض - لتظهر كشخصيات. فالحياة السوداء هي المركز.

جرأة جايني هي (فعل) الرفض، والنضال الواعي للحب (والحياة) الذي يحب نفسه، بشخصه وعامه، حباً يحترم استقلالها، حتى عندما تختار أن تحضِّر الفطور. «وفي أحد الأيام جلست وشاهدت ظلها يطوف ويعتني بالمخزن، تنهك نفسها... في حين أنها تجلس كل الوقت تحت شجرة مظلّة والريح ينفخ بشعرها وبملابسها» (ص 73). قرارها أن تفصل الداخل والخارج هو استخطاطية للتحليل والعيش، وليس خضوعاً للفوقية.

رواند نكد

المراجع:

- Césaire, Aimé (2000), *Discourse on Colonialism*, Monthly Review Press, New York.
- Devlin-Glass, Francis (2007), 'Review essay: Alexis Wright's *Carpentaria*', *Antipodes*, June, p 82-84.
- Kalikoff, Hedy (1995), 'Gender, genre and geography in Aimé Césaire's *Cahier d'un retour au pays natal*', *Callaloo*, vol. 18, no. 2, p 492-505.
- Minh-ha, Trinh T. (1989), *Woman native other*, Indiana University Press, Bloomington.
- Neale Hurston, Zora (1990), *Their eyes were watching God*, Harper & Row, New York.
- Wright, Alexis (2008), 'A weapon of poetry: Alexis Wright remembers Oodgeroo Noonuccal', *Overland*, issue 193, p 19-24.
- Wright, Alexis (2007), 'On writing *Carpentaria*', *Heat*, issue 13 (*Harper's Gold*), p 79-95.
- Wright, Alexis (2007), 'Alexis Wright interview', *Hecate*, vol. 33, issue 1, p 215-219.
- Wright, Alexis (2006), *Carpentaria*, Giramondo, Australia.

Aimé Césaire: Selected Writings

Poetry

Cahier d'un retour au pays natal (1939), Volontés, Paris.
- 1942, Spanish, Molina y Cía, Havana.
- 1947, French, Bordas, Paris.
- 1968, English, *Return to my native land*, Présence Africaine, Paris.
- 2001, English, *Notebook of a return to the native land*, Wesleyan University press, Connecticut.

- *Les armes miraculeuses* (1946), Gallimard, Paris.
- 'The miraculous weapons' (1983), trans. Shelman & Smith, *Aimé Césaire: the collected poetry*, University of California press.

- *Soleil cou coupé* (1948), K, Paris.
- *Solar throat slashed: the unexpurgated 1948 edition* (2011), Wesleyan University press, Connecticut.

- *Corps perdu: gravures de Pablo Picasso* (1950), Éditions Fragrance, Paris.
- *Lost body: illustrations by Pablo Picasso* (1986), Braziller, New York.

- *Ferrements* (1960), Éditions du Seuil, Paris.
- 'Ferraments' (1983), trans. Eshleman & Smith, *Aimé Césaire: the collected poetry,* University of California press.

- *Cadastre* (1961), Éditions du Seuil, Paris.
- *Cadastre* (1973), Third Press, New York.

- *Moi, laminaire: poèmes* (1982), Éditions du Seuil, Paris.
- I, laminaria (1990), trans. Eshleman & Smith, *Aimé Césaire: lyric and dramatic poetry 1946-1982*, University press of Virginia.

Theatre

- *Et les chiens se taisaient: tragédie: arrangement théâtral* (1956), Présence Africaine, Paris.
- 'And the dogs were silent' (1990), trans. Eshleman & Smith, *Aimé Césaire: lyric and dramatic poetry 1946-1982*, University press of Virginia.

- *La tragédie du roi Christophe* (1963), Présence Africaine, Paris.
- *The tragedy of king Christophe* (1969), Grove Press, New York.

- *Une saison au Congo* (1966), Éditions du Seuil, Paris.
- *A season in the Congo* (1969), Grove Press, New York.

- *Une tempête: d'après 'la Tempête' de Shakespeare: adaptation pour un théâtre Nègre* (1969), Éditions du Seuil, Paris.
- *A tempest: based on Shakespeare's 'The tempest': adaptation for a Black theatre* (1985), Ubu Repertory Theater publications, New York.

(Produced 1969, International Festival, Hammamet, Tunisia).

Other Writings

- 'Poésie et connaissance' (1945), *Revue Tropiques*, no. 12.
- 'Poetry and knowledge' (1990), trans. Eshleman & Smith, *Aimé Césaire: lyric and dramatic poetry* 1946-1982, University press of Virginia.

- *Discours sur le colonialisme* (1950), Réclame, Paris.
- *Discourse on colonialism* (1972), Monthly Review, New York.

- *Lettre à Maurice Thorez* (1956), Présence Africaine, Paris.
- *Letter to Maurice Thorez* (1957), Présence Africaine, Paris.

- 'Culture et colonisation' (1956), *Présence africaine: revue culturelle du monde noir*, juin-novembre.
- *Culture and colonization* (1978), University of Yaounde, Cameroon.

- 'Décolonisation pour les Antilles' (1956), *Présence Africaine: revue culturelle du monde noir*, avril-mai.

- *Toussaint Louverture: la révolution française et le problème colonial* (1960), Club Français du livre, Paris.

- *Aimé Césaire: le discours sur la Negritude, Miami 1987 = Aimé Césaire: discourse on Negritude, Miami 1987* (2003), Conseil général de la Martinique, Fort-de-France.

Other Collections

- *Oeuvres complètes. vol. 1 (poésie), vol. 2 (théatre), vol. 3 (oeuvre historique et politique)* (1976), Editions Désormeaux, Fort-de-France.

- *Non-vicious circle: twenty poems of Aimé Césaire* (1984), trans. G. Davis, Stanford University press.

- *La poésie* (1994), ed. Maximin & Carpentier, Éditions du Seuil, Paris.